كوزيما

جراتسيا ديليدا

ترجمة أماني فوزي حبشي

كوزيما

تأليف
جراتسيا ديليدا

ترجمة
أماني فوزي حبشي

هنـــداوي

كوزيما

جراتسيا ديليدا

Cosima

Grazie Deledda

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩٣٤ ٧

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإيطالية عام ١٩٣٧.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيدة الدكتورة أماني فوزي حبشي.

المحتويات

مقدمة المترجمة	٧
الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	٢٣
الفصل الثالث	٢٩
الفصل الرابع	٣٩
الفصل الخامس	٥١
الفصل السادس	٥٩
الفصل السابع	٧٧
الفصل الثامن	٩٥

مقدمة المترجمة

رواية كوزيما هي الرواية التي كتبتها جراتسيا ديليدا،[1] الحاصلة على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٦م. الرواية تُعد سيرة ذاتية، تحكي فيها عن طفولتها في جزيرة سردينيا، ومعاناتها كفتاة «مختلفة» تربَّت في بيئة تحكم تنشئة الفتيات حسب كثير من القيود الاجتماعية ويصعب فيها قبول الخروج عن المألوف والمعتاد.

عثَر الورثة على الرواية بعد وفاتها عام ١٩٣٦م، ونُشرت في البداية على حلقاتٍ ثم روايةً مستقلة عام ١٩٣٧م. فيها تعود الكاتبة إلى الوراء لتنظر بحكمة ونضوج إلى بداياتها، لتنقل لنا في جو ساحر مسيرتها الأدبية، وشغفها بالقراءة منذ نعومة أظافرها، ونظرتها وانفعالاتها بالأشياء التي كانت تحيط بها. نتعرف في الرواية على التحديات التي واجهتها لتحصل على قسط أكبر من التعليم يسمح لها بممارسة الكتابة، بالإضافة إلى خبراتها الأولى مع الناشرين والنقاد والمعجبين ومسيرة نضوجها الأدبي.

للطبيعة في سردينيا تأثيرها على كل كتابات ديليدا بصفة عامة، فهي حاضرة في كل رواياتها، وأغلبية شخصيات رواياتها مستوحاة من بيئتها وحياتها اليومية، وهذا ما تبرزه من خلال تلك الرواية-السيرة الذاتية.

إنها تلك النظرة من بعيد، على بعد سنوات نالت فيها من النجاح ما لم تحلم به، نظرة إلى تلك الطفلة «المحاربة»، تفحص من خلالها وتتأمل لحظات الإحباط، وبساطة الأشياء التي كانت تعيد إليها الأمل من جديد وتدفعها إلى الاستمرار. نظرة إلى طفلة تعلمت الفقد في سن مبكرة، ومواجهة الموت والحياة في ظل أشباحه والعجز أمام المرض. مواجهة

---

[1] Grazie Maria Cosima Mariana Deledda.

رفض الأم لموهبتها ولفنها، وتشجيع أخيها لها ورغبته في نجاحها المشوب بالخوف في أغلب الأحيان، فديليدا تنظر نظرة واقعية ولكن يغلفها كثير من المحبة والتعاطف لعائلتها.

في كوزيما تنقل إلينا ديليدا سر نجاحها، مع كل تلك التفاصيل الصغيرة اليومية، في تلك القرية التي حباها الله بطبيعة فاتنة، تسحرنا في أثناء القراءة فنحلم بزيارتها. تلك الطبيعة التي علمتها كثيرًا من الدروس، وكانت تؤثر فيها بل وتحركها أحيانًا كثيرة بكل من فيها من سكان، بطبقاتهم المختلفة ومعاناتهم اليومية، حيث كانت حياتهم مادة رواياتها ومصدر إلهامها.

الفصل الأول

كان المنزل بسيطًا لكنهُ مريح: حجرتان في كل طابق، كبيرتان، السقف منخفض قليلًا، والأرضية والأسقف مصنوعة من الخشب، مبيَّضة بالجير، والمدخل مفصول الوسط بجدار: من اليسار الدَّرَج، والمنحدر الأول من الدَّرَج مصنوع من الجرانيت، والباقي من الأردواز، من اليسار بعض الدرجات تهبط إلى المخزن. الباب ضخم ومتين، مغلق بخطاف كبير من الحديد، كانت به مِقرعة تضرب كأنها المِطرقة، وسلسلة وقُفل بمِفتاح ضخم كأنه مِفتاح قصر. الغرفة الواقعة على اليسار مُجهزة لاستخدامات متعددة، بها فراش مرتفع وقاسٍ، ومكتب، وخزانة متسعة من خشب الجوز، ومقاعد ريفية تقريبًا محشوة بالقش ومطلية بلون أزرق مُبهج. على اليمين تقع حجرة الطعام، بها مائدة من خشب الكَستَناء، ومقاعد مثل تلك الأخرى، ومِدفأة، فقط لا غير. يوجد مخرج صُلب، مغلق بدوره بالجنازير والسلاسل، يقود إلى المطبخ. والمطبخ مثل الوضع في كل المنازل التي ما زالت تستمتع بالسلطة الأبوية، هو الحجرة الأكثر سُكنى، المكان الأكثر دفئًا بالحياة والحميمية.

فيه توجد المِدفأة، وأيضًا الموقد المركزي الذي تحيط به أربع قوائم من الحجر، وعلى ارتفاع طول إنسان معلقةٌ أربعة حبال من الجلد في القوائم الضخمة للسقف المصنوع من القصب، وكانت توجد تعريشة من النحاس، فحَّمها الدخان، أبعادها حَوالَي متر مربع، وفوقها تقريبًا بشكل دائم أشكال صغيرة من جبن الماعز، مُعرضة للدخان الذي يُعتِّقها وينشر رائحتها في كل الأركان. بالإضافة إلى لمبة زيت بُدائية معلقة بدورها في أحد أركان تعريشة من الحديد الأسود وبها أربع فُوَّهات، كانت نوعًا من الطاسات المربعة التي يُغرق زيتها وهي مكشوفة الفتيل المعلق في إحدى تلك الفوهات. فيما عدا ذلك كان كل شيء بسيطًا قديمًا في المطبخ الكبير إلى حدٍّ ما، السقف مرتفع، وإضاءته جيدة من خلال نافذة تُطل على الحقل، وشُباك مُتحرك مفتوح من المدخل على الممر. في الزاوية القريبة من النافذة يبرز

الفرن الضخم بمدخنة في الجدار، وثلاثة مواقد على الحافة، وفي مجمرة بجوار تلك الأفران يُحفظ الجمر، نهارًا وليلًا، مُوقدًا ومغطًّى بالرماد. وفوق الحوض الحجري الواقع بجوار النافذة يوجد دائمًا في وعاء صغير من الفلين بعض من الفحم، بالإضافة إلى أن اللحوم تُطهى بنيران المدخنة أو الموقد المركزي على قوائم ثلاثية من الحديد يمكن أن تتحول إلى مقاعد. كل شيء كبير ومتين في أدوات المطبخ، الأواني النحاسية المرتبة بعناية، والمقاعد المنخفضة حول المِدفأة، والأرائك، والرف الخاص بالأطباق، والجرن الرخامي لطحن الملح، والمائدة، والخزانة الخشبية التي بالإضافة إلى الأواني يوجد بها أيضًا وعاء من الخشب يحتوي دائمًا على جبن مبشور، وتوجد سلة مصنوعة من نبات البَرْوَق بها خبز الشَّعير والزيت للخدم.

كانت الأدواتُ الأكثر تميزًا موضوعةً على الرف الخشبي، فها هو ذا صف من الشمعدانات النحاسية. وللئها، كانت جِوارَها المِزْيتة ذات المِنقار الطويل التي تشبه وعاء كيميائيًّا، والجرة الفَخَّارية التي تحوي الزيت الجيد، وجيش من ماكينات القهوة والفناجين القديمة الحمراء والصفراء، والأطباق المصنوعة من القصدير التي تبدو كأنها بدورها آتيةٌ من أحد كهوف ما قبل التاريخ، بل وكان يوجد أيضًا لوح التقطيع الريفي، أي صينية من الخشب، يوجد بها تجويف في أحد الأركان للملح.

كانت توجد أدوات ريفية أخرى تمنح المكان لونًا فريدًا، فها هو ذا سَرْج معلق على الحائط بجوار الباب، وبجواره جوال صوفي طويل رَمادي اللون يُستخدم كمِعطف أو غطاء للخادم، والخُرج الذي ينام عليه الخادم نفسه، سواء كان راعيًا أم فلاحًا، عندما يبيت ليلته في المدينة، من الصوف أيضًا.

على الحوض توجد دائمًا قصعة من النحاس مليئة بالمياه المرفوعة من البئر الموجودة في ساحة الدار، وعلى مِنضدة توجد قارورة من الفَخَّار بها ماء صالح للشرب تُستحضَر بعناء من النافورة البعيدة عن السكن. والمياه في تلك الفترة مشكلة، وفي الصيف تقاس بالقطرة، فيما عدا الأوقات التي تصل فيها الأمطار الغزيرة وتملأ الحوض الواقع أسفل أنبوبة الصرف النازلة من الأسقف، بيد أن النظافة الدقيقة التي تتم دون ماء تجعل كل المنزل مُحببًا.

ومن النافذة ذات الشبكة الحديدية مثل باقي نوافذ الدور الأرضي يمكن رؤية خضرة الحقل، وبين تلك الخضرة كان لونا الجبال الرَّمادي والأزرق يظهران. ولكن كما سبق وذكرنا، الباب يطل على الممر المثلث الذي كان طويلًا ويشغل تقريبًا نصفه كوخ قديم، من

خلاله، وعن طريق مخرج صغير، يمكن الذَّهاب إلى الحقل. في النهاية توجد بئر، وخلف السور المرتفع للحديقة يوجد جبل من الحطب، ملجأ العديد من القطط والدجاجات التي تخفي فيه أعشاشًا لبيضها. توجد بلطة مستندة إلى جذعين بجوار السور الجانبي للمنزل، الذي ما زال غير مصقول، وعليه في الطابق الأول نافذة واحدة مفتوحة (كانت كل النوافذ بلا مصاريع) تُستخدم مقعدًا. وتوجد بوابة ضخمة مغلقة بدورها بالخطافات والدعامات، مصبوغة باللون البني القاتم، وتطل على الشارع. في الصباح تكون شبه مغلقة، وتُستخدم أكثر من الباب الصغير لواجهة المنزل، ممرًّا للسكان وأصدقاء المنزل. أمام تلك البوابة، في صباح أحد أيام شهر مايو، تطل طفلة سمراء، جادة، بعينيها الكَستَنائيتين اللامعتين الكبيرتين، يداها وقدماها صغيرات، وهي ترتدي مريلة رَمادية بها جيوب، وجوربًا من القطن السميك الخام، وحذاءين ريفيين بالأربطة. تبدو فلاحة أكثر من كونها برجوازية، وكانت تنتظر وهي تتأرجح أن يمر شخص ما، أو أن يطل شخص من النافذة المقابلة، لتعلن خبرًا مهمًّا. ولكن الطريق الضيق وغير المعبد ما زال مهجورًا في تلك الساعة المبكرة من الصباح كأنه مِدَقٌّ ريفي، وفي المنزل القديم المقابل، الذي هو أيضًا له سور عالٍ وفناء جانبي وبوابة ضخمة لونها يميل إلى الاحمرار، لا يظهر أحد. كان يسكن المنزل كاهن، طويل القامة، ناسك أسود، يميل للصمت، وتسكن معه ابنة أخته الشابة الذكية التي أرادت أن تصبح راهبة، ولكن بعد بضعة أشهر من فترة الابتداء أعادوها إلى المنزل بسبب صحتها المعتلة. كانوا أناسًا فاضلين، بسطاء ومتقشفين. يشكو من أن لا أحد يصافحه في الطريق، ولكنه هو الذي كان يسير دائمًا وعيناه منخفضتان، منهمكًا في تأملاته الدينية. أما قريبته، التي رأت أن الرب لم يُردْها عروسًا له، فهي تسعد بالغزَل المتحفظ لشاب وسيم يعمل نجارَ عاج، ولكنها قررت ألا تتزوجه لأنه غيرُ مناسب لها، فهو لا يمتلك عقارًا، ولا يعمل موظفًا. تعرف الطفلة الواقفة على البوابة كل هذه الأشياء، وتعتبر جيرانها شخصيات استثنائية. في الواقع، كان كل شيء استثنائيًّا بالنسبة إليها، تبدو كأنها قد أتت من عالم يختلف عن ذلك الذي تعيش فيه، وكان خيالها مليئًا بذكريات عن عالم أحلامها هذا، بينما لا يضايقها واقعها أيضًا، الذي طالما نظرت إليه بطريقتها، وجعلته نسخة ملونة من خيالاتها.

تهب روائح الحقل تأتي من نهاية الطريق، ويسود الصمت المكان، ولا يقطعه سوى صوت دقات الساعات وأرباع الساعات آتيةً من ساعة الكاتدرائية. عبرت بسرعة طيور الدُّوري في السماء الزرقاء القاتمة، تطير على مستوًى منخفض كأنها في لوحات المناظر الطبيعية للرسامين الإسبان، ولكن الدُّوري أيضًا طيور صامتة. وأخيرًا فُتحت نافذة في

المنزل المقابل، وظهر وجه قمحي، بعينين واسعتين تعانيان من قصر النظر، وأخرجت رأسها ناظرة إلى هنا وهناك نحو نهايتي الشارع. إنها الآنسة بيبينا، ابنة أخي الكاهن. رفعت الطفلة نفسها، وهي تمسك بمقابض البوابة لتظهر أكثر، وصرخت بالخبر المهم جدًّا بالنسبة إليها: سيدة بيبينا، أصبح لدينا طفل جديد، سيباستيانينو.

اتضح بعد ذلك أنها كانت أنثى، ولكن تمنت الطفلة أن يكون لها أخ، ولهذا اخترعته، هو واسمه وكل شيء.

وعندما أنهت مهمتها، دخلت مرة أخرى إلى المطبخ، وانتظرت أن تنتهي الخادمة من طهو اللبن لها للإفطار. ولا بد أن نقول كلمتين أيضًا عن هذه الخادمة، التي عند ذكرها، تبدو كأنها هي أيضًا اختراع بعيد عن الواقع. تُدعى نانا، والآن تجلس بالتأكيد على يمين الرب، هي المخلصة لمخدوميها، في صفوف البطاركة. خدمت هذا البيت منذ عشرين عامًا، وما زال أمامها عشرون عامًا أخرى. كان عمرُها وقتَها ثلاثين عامًا، أتت إلى المنزل طفلة، من كوخ لمسيحيين فقراء، لتهتم بالطفل الأول لأصحاب البيت، الذي مات بعد مولده ببضعة أشهر، ولكنه ترك مكانه في المهد لآخر. كان المهد أيضًا بُدائيًّا، كأنه حُفر في جذع شجرة جوز، بلا أي أسدال أو زينة، ولم يبقَ فارغًا قط.

كانت نانا لا تزال امرأة جميلة، عيناها لونهما كَستَنائي كأنهما لكلب طيب، لديها كتلة من الشعر في الزاوية اليمنى من فمها، ثدياها مستطيلان ومنخفضان مثل جنس العبيد. ولكن كونها خادمة فهو شيء غير مؤكد في ذلك المنزل، حيث اعتادوا العهد إليها بكل شيء، بما في ذلك الأطفال الذين كانوا ينامون معها، وتأخذهم معها عندما تذهب لشراء احتياجات المنزل. فهي تعمل نهارًا وليلًا وتفعل ذلك عن طيب خاطر؛ فهي تذهب لتأخذ المياه من النافورة، ولتغسل الملابس بعيدًا حيث توجد بعض جداول المياه، تنظف الدقيق وتصنع مع سيدة المنزل الخبز القمحي وذلك المصنوع من الشعير، تذهب لتجمع الزيتون من البستان، ولتجمع جوز البلوط للخنازير، وفي الغابة الجبلية تقطع الخشب، وتعطي الطعام للحصان، تنظف جزء الشارع الواقع أمام المنزل، لأن البلدية لم تكُن تتولى هذا الأمر، وفي وقت الحصاد تعصر العنب بقدميها العاريتين القويتين المكسوتين بجلد يبدو كأنه مصبوغ. يحتفظ لها سيد المنزل بالمرتب، ويستثمره لها. عندما كانت في العشرين، وجميلة وشقراء تقريبًا، اعتاد الخبثاء القول إن السيد ضعيف أمامها، ولكنها مجرد ثرثرة، وتطايرت مع الوقت.

وها هي ذي الآن تطهو اللبن بحرص على الفرن الصغير فوق الفرن الكبير، وبسبب حالة الوضع لسيدة المنزل ارتدت حذاءيها بلا جوربين، كما هو مفهوم، حيث عليها أن

تكون مستعدة لكل الأوامر: لديها تجعيدة تخطط جبهتها، وأذناها مشدودتان مثل الأرانب البرية. أصبحت مسئولية المنزل تقع على عاتقها هي فقط، وتستفيد من سيادتها تلك فقط لتحتسي بعض فناجين قهوة إضافية، شغفها الوحيد.

يأتي الأولاد الواحد تلو الآخر لتناول القهوة واللبن، تصبها لهم في فناجين مستديرة من الفَخَّار الأصفر والأحمر، حتى من هم أكبر الذكور بينهم، كانوا يذهبون بالفعل إلى المدرسة الإعدادية في المدينة الصغيرة. كان أكبرهم سانتوس صبيًّا وسيمًا ذا هيئة أنيقة وعينين كبيرتين لونهما رَمادي سماوي، وبؤبؤ العين أزرق اللون، تصرفاته عاقلة ورزينة، يرتدي ملابسه بأناقة معينة، وبينما يشرب القهوة واللبن ينتهي من مراجعة درس اللاتينية. لم يكُن الحدث المنزلي يدهشه ولا يسبب له أي اضطراب: فهو يعرف السر ويقبله كشيء طبيعي. مشاعره هادئة، تكاد تكون باردة، وخياله محسوب. لم يكُن يحب النساء، ولا يفكر إلا في الدراسة، والتعمق فيما يخص الحياة، ولكن من خلال الكتب. لا، لم يكُن يتمتع بالخيال، ولكن ربما يكون هو أيضًا حالمًا، مثل أخته الصغيرة، ويأتي من عالم بعيد عن الواقع القاسي. يتعجل في الذَّهاب إلى المدرسة، بالكتب المربوطة جيدًا بحزام، ولا يقلق إذا تأخر الأخ الآخر، وربما يكون ما زال نائمًا في حجرته في الدور الأخير الذي به نافذتان، إحداهما تطل على الواجهة والأخرى تطل على أسقف غرفة حفظ الأطعمة والمستودع والمخازن الأخرى.

نزلت قبله الأختان الأكبر إينزا وجوفانا، اللتان تذهبان إلى المدرسة نفسها، صغيرتان في الحجم، وتقريبًا متماثلتان كتوءمين، بعيونهما السماوية، وشعرهما الأسود الأملس، والمربوط في ضفيرة تنتهي بتموج. كان زيهما غريبًا حقًّا بالتنورة الداخلية الواسعة والطويلة والمتصلة من الوسط بالقميص برباط، وكان كماه واسعين، والزي كله مصنوع من قماش مخطط بالألوان: ومن القماش نفسه صُنعت حقيبة الكتب، وكانتا هما أيضًا ترتديان الجوارب البيضاء والأحذية ذات النعال المسمَّرة، وعلى رأسيهما ترتديان غطاءي رأس من الحرير، ولكنهما تعقدانهما بخبث على الخد الأيسر، لتتركا شعرهما مكشوفًا حتى نصف رأسيهما.

تنظر إليهما الصغيرة كوزيما، التي لم تكُن بعد في عمر الذَّهاب إلى المدرسة، بإعجاب وحسد، ولكن أيضًا بشيء من الخوف، لأنهما — وبخاصة إينزا — لم تكونا فقط تتجنبان اللعب معها، ولكنهما تكيلان لها اللكمات واللكزات والضربات والشتائم، كلها أشياء تعلمتاها من صحبة المدرسة.

وكان أخوها أندريا الأطيبَ معها. وها هو ذا قد نزل بمجرد أن خرجت الأختان للذَّهاب إلى المدرسة، ولكنه يتحرج من أن يشرب القهوة باللبن، يقول عن ذلك إنه شيء خاص بالنساء. يمكنه أن يأكل شريحة نصف نِيئة من اللحم الأحمر، ولأن ذلك لم يكُن متوفرًا، يرضى بأن يجذب سلة الخدم، ويقضِم بأسنانه القوية الخبز القاسي وقطعة (القشرة الخارجية) من الجبن. تقترب منه نانَّا ومعها الفنجان الممتلئ في يدها: لأن أندريا هذا معبودُها الأعظم، ألمُها ومصدر قلقها.

قالت وهي تضع أمامه الفنجان: تبدو لي كأحد الرعاة، خذ هذا، تناولْه يا ملاكي، سيشم المعلم رائحة الجبن.

– ومن يكون هو؟ أنا راعٍ ثري، وما هو سوى متسولٍ فقير، سكِّير، متسخ.

هكذا يتحدث أندريا عن معلم اللغة اللاتينية، ويقول هذا عن اقتناع لأن كل من يعيشون من العمل العقلي بالنسبة إليه هم أناس أكثر فقرًا من عمال المواشي والعاملين باليومية.

كانت عقليته بالفعل تنتمي إلى راعٍ ثري، يعيش حياة قاسية، ولكنَّ لديه ماشيتَه وأرضَه ونقودَه، وقبل كل شيء، فهو حر في التصرف، سواء في فعل الخير أم الشر. كان جسمه ضخمًا مستطيلًا، ويرتدي ملابسه بلا اهتمام، ولكن رأسه متميز، قويٌّ، يملؤه الشعر الأسود الكالح، كان أنفه شامخًا، وشفتاه مغريتين، عيناه رَماديتان مُذهَبتان تلمعان كعيني الصقر. لا يحب الدراسة، ويسعد فقط عندما يتمكن من الهروب من المنزل على حصانه كأنه قائدُ مائةٍ مراهق. لم يعلمه أحد ركوب الخيل، غير أنه يصعد أيضًا دون سرج على المهور غير المروضة، وتتنافس صرخاته، ليخضعها، مع صهيلها.

عندما أدرك وجود كوزيما، الجالسة في هدوء على مقعد منخفض، وصحنها في حجرها، ابتسم لها، وقبل أن يخرج اقترب منها وقال لها بصوت منخفض، ونبرة توحي بالتآمر: يوم الأحد سآخذك على الحصان إلى الجبل، ولكن لا تقولي لأحد، هه!

فتحت عينيها الكبيرتين وهما تتلألآن من السعادة والأمل، واختلط ذلك الوعد من أخيها المملوء بالوعود والرؤى العجيبة؛ اختلط في خيالها مع غموض المخلوق الذي وُلد في الليل في منزلهم، ولا أحد يدري من أين أتى؟ ولا كيف؟

ذلك المولود، أيضًا، سيجلب نوعًا من التغيير في حياتهم اليومية. فلا بد للأختين الكبيرتين من أن تنتقلا إلى الغرفة العليا، لتتركا مكانًا، في فراش نانا، لكوزيما وللصغيرة بينا التي لا تزال نائمةً في المهد في غرفة والديها. سنُّ بينا الآن تقريبًا ثلاثة أعوام، ولكنها

تبدو أصغر، وما زالت تتحدث بصعوبة، لأن الغضروف أسفل لسانها أصغر من المعتاد، وكانوا يتحدثون عن ضرورة عمل قطع صغير ليفكوا اللسان من إعاقته.

وها هي ذي أيضًا تظهر في المطبخ، تمسكها الجدة بيدها. لم تكُن الجدة تعيش معهم، ولكنها قضت الليلة في المنزل لتساعد، ومعها نانَّا، ابنتَها التي تلد. صار كل شيء على ما يرام، بلا أية ضوضاء أو فوضى. الآن ترتاح النُّفَساء ومعها الطفلة، والأب أيضًا، الذي ظل مستيقظًا طَوال الليل يقرأ أو يتمشى بهدوء في الحجرة الملحقة بحجرة الزوجة، ونام على أريكة قديمة.

ولكن لم تكُن الجدة تشعر باحتياج إلى النوم، على الرغم من أنها امرأة صغيرة جدًّا وضعيفة، تكاد تكون قزمة، لها يدان وقدمان كأنها لطفلة، وعيناها بلونهما البندقي، ورموشهما الطويلة السوداء، مليئتان بالبراءة، كأنها لم تشهد قط أي ظلال للشر. تجمَّع شعرها الأبيض في غطاء من النسيج الأسود، ولكن تهرب بعض خصلاته لتستقر على عنقها وخلف أذنيها، وتمنحها مظهرًا مرحًا. تعتبرها الحفيدات واحدة منهن، بينما يشعرن بالخوف من الأم، وتشعر كوزيما بأنها في حُلم عندما تراها تظهر فجأة. ولكن ربما لم يكُن حُلمًا بقدر ما كان شعورًا محسوسًا بذكرى لا تقوى على الإمساك بها، نوعًا من الدُّوار، مثل تدفق دموي، فسرته هي فيما بعد بأنها اعتقدته شيئًا كالانبعاث، وعلى الفور الغوص من جديد في الحياة السابقة التي ظلت أو وُلدت من جديد في ضميرها الداخلي. ثم إن الجدة كانت تذكِّرها — ولكن هذا يحدث تقريبًا بشكل إرادي — بنساء الحواديت، أو الجنيات الصغيرات، سواء الطيبات أم الشريرات تبعًا للمناسبة، والأساطير الشعبية تؤكد أنهن يسكنَّ في منازل صغيرة من الحجارة محفورة في الصخر، وبخاصة في مناطق هضاب الجرانيت. تلك المساكن الصغيرة التي تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ، ما زالت موجودة، آثارًا حجرية تعود إلى العصور القديمة، وتُدعى: منازل الجنيات الصغيرات.

تناولت الجدة الصغيرة القهوة، أطعمت الصغيرة ثم حممتها، وفي النهاية أرسلت الخادمة لابتياع المشتريات: وكانت عمليةَ شراء سريعة، لأن كل الاحتياجات موجودة بالفعل في المنزل، بما في ذلك الخبز، ولم يكُن الأمر يتعلق إلا بشراء اللحم للحَساء، وبعض السمك، إذا ورد، كما في حالات نادرة، من الشاطئ الشرقي للجزيرة.

تقف كوزيما بصحنها الفارغ مترددة، هل ستتبع الخادمة في خرجتها القصيرة الصباحية، أم ستنفذ مشروعها؛ ترغب في التسلل إلى حجرة أمها لرؤية الصغيرة، واستغلت عندئذٍ اللحظة التي تستخرج الجدة فيها المياه من البئر، لتخترق السلالم الصماء. وبعد

الدَّرَج الأول المصنوع كله من سلالمَ من الجرانيت، على طابق صغير يُفتح باب إلى شيء كالمخزن، له أرضية خشبية وسقف، مثل ذلك الذي بالمطبخ، من القصب الذي يكون إطارًا خشبيًّا متينًا وحديثًا. عادةً يُغلق ذلك الباب بالمِفتاح، ولكن في هذه المرة وبسبب توتر تلك الليلة تُرك مفتوحًا. وقبل أن تتابع نحو هدفها، لم تتردد كوزيما في أن تكتشف الغرفة الكبيرة، التي تمثل أيضًا لها مخزنًا للأسرار.

أكوام من القمح ومن الشعير، من اللوز والبطاطس، تشغل الأركان، بينما توجد مائدة طويلة، تكدس فوقها دُهن الخِنزير واللحوم المقدَّدة، وحولها توجد سلال من نبات البَرْوَق، مملوءة بالفول والفاصوليا والعدَس والحِمَّص، تجاور أواني الدُّهن، والمُربَّى، والطماطم المجففة، والمُملحة. ولكن أكثر ما أثار رغبة كوزيما هو بعض عناقيد العنب وثمار الكُمَّثرى المجففة التي تتدلى من إحدى العوارض التي تدعم السقف. توجد نحلة، أو ربما دبور، يطِن حولها في سعادة، بينما كانت هي ممنوعةً من لمس أي حبة منها. تعرف أن هناك عصًا، مقسومةً من طرفها، يمكنها بها أن تفصل الخيزرانة التي تربط العُنقود، ثم تجذبه إلى الأسفل بأمان، عثَرت عليها خلف الباب، ورفعتها مثلما يفعل خادم الهيكل وهو يُضيء الشمع الموضوع في الأعلى. طارت النحلة بعيدًا، واستطاعت الإمساك بعنقود العنب، ولكن في نصف الطريق إلى الأسفل أفلت من بين أسنان العصا، سقط، وانفرط على الأرض مثل العِقد المقطوع. التهمت الحبات الأولى ثم فكرت في أن أمها، الأكثر صرامة في المنزل، لن تتمكن من ملاحظة تلك الكارثة الصغيرة، وبصبر وإرادة تملكها هي وحدها، جمعت الحبات واحدة بعد الأخرى، ثم وضعتها داخل مِنديلها، وأخفت العنب والقصبة، وأعادت العصا، وعندما أخفت كل أثر للضرر فكرت في أنها أيضًا جيدة — كما تسمع الخدم عندما يعودون من الحقل — في النشل والسرقة، وأن تخفي آثار سرقتها بحيث لا يشك أحد قط في المجرم الحقيقي.

لم تكُن تلك الخيالات المتوحشة تنقصها، ولكن الخدم أنفسهم ومعهم الفلاحون الآخرون الذين يترددون على المنزل، والبرجوازيون أيضًا، والأقارب، وأصدقاء أبيها، والضيوف الذين يأتون من البلاد الجبلية والوديان هم من يزرعونها في الأطفال الفضوليين والحساسين من خلال قصص مغامرات السرقة التي كانت آنذاك منتشرةً كأنها ما تبقى من عمليات وحروب العصور الوسطى، في محيط كيلومترات، وكيلومترات قريبة منهم. ومن خلال تلك القصص المثيرة شب الصبية أكثر شجاعة مستعدين للقتال مع الأشرار، والفتيات، حتى لو صغيرات مثل كوزيما، كانت لديهن بالفعل غرائز نساء الأمازون. كان تعليم الأم الديني والمتقشف يكبح بقدر المُستطاع الشره الداخلي للأبناء، وكان التأثير الأكبر

يأتي أيضًا من ناحية الأب، لأن رب الأسرة السيد أنطونيو هو أكثر الرجال وداعةً وعدلًا في المنطقة، بيد أنه مأخوذ جدًّا في أعماله، مندفعًا بحاجته لأن يوفر حياة مريحة للأبناء، ولم يكُن هذا يسمح له بأن يخصص وقتًا أيضًا لثرائهم الرُّوحي. يرسلهم إلى المدرسة بالفعل، وكانوا هم في وجوده، سواء بسبب احترامهم وحبهم الطبيعيَّين تجاهه، أو بسبب نفاقهم، يَظهرون صالحين ومهذبين.

بيد أن كوزيما تشعر تجاهه بشعور لا حدود له من الثقة، وأحيانًا أخرى بالإعجاب. لم تشعر بالقلق عندما رأته يظهر في أعلى على بسطة الطابق الأول، بينما تصعد مجموعة سلالم الدَّرَج الثاني. كانت الدرجات مصنوعة من الخشب الأبيض، ومضاءة جيدًا بنافذة بسطة الدَّرَج، والبسطة كبيرة مثل الغرفة، بها خزانة حائط مغطاة بستار من القماش الأبيض، وماكينة الحياكة، وبعض المقاعد، تُفتح من خلالها المداخل على غرفة الأبوين، وعلى حجرة أخرى تُستخدم للضيوف عندما يكونون جماعة، وهو الأمر الذي كان يحدث كثيرًا. في تلك الحجرة، التي كانت أفضل الحجرات تجهيزًا في المنزل، توجد نافذتان، واحدة تطل على الطريق والأخرى على ساحة المنزل، بها أيضًا أريكة ومائدة صغيرة مستديرة مُطعمة بالخشب الأبيض. وخرج منها في تلك اللحظة السيد أنطونيو، وتوقف ليتنصت على باب حجرة زوجته. وعندما أدرك وجود الصغيرة كوزيما، أشار لها بألا تصدر أي ضوضاء. وتوقفت هي مستندة على جانب الدَّرَج، خائفة، ولكن ليس كثيرًا. كان أبوها فوقها، يبدو لها مرتفعًا كأنه عملاق، بينما هو في الحقيقة قصير القامة وممتلئٌ قليلًا. قدماه قصيرتان، ولكن جذعه كان صُلبًا وضخمًا، ورأسه كبير وأصلع، مع وجود بعض التجعيدات الرَّمادية تتدلى من خلف أذنيه الورديتين إلى عنقه القوي. وأيضًا وجهه يبدو لكوزيما أكثر غرابة من وجوه كل من تعرفهم: فوجهه في الواقع وجه نَموذجي، ذو جبهة عالية، وأنف قصير مفلطح، وفم صغير ورفيع بين شفة عليا مرتفعة وذقن مربع. لم يكُن لديه شعر في ذقنه، ولكن بعض الشعيرات العنيدة على خديه العريضين. كان ذلك الوجه البسيط لفلاح تحول إلى البرجوازية عليه علامات وأمارات ذكاء وحكمة خارقين للعادة. وعيناه الرَّماديتان أو الزرقاوان أو الزرقاوان المُخْضَرَّتان — حسب الضوء — يمكن أن تكونا عينَي قديس، ولكن أيضًا عينا محارب. في تلك اللحظة كانتا زرقاوين، تعكسان لون السماء فوق النافذة، وكانتا تنظران بطفولة تجاه الطفلة المستندة إلى الحائط، ولكنهما تحولتا على الفور إلى اللون الرَّمادي، لأنه في الحجرة يُسمع صوت بكاء.

عندئذٍ أشار إلى كوزيما لتصعد وفتح الباب. تشعر الطفلة بقلبها يدق. كيف استطاع أبوها أن يخمن رغبتها؟ ووجدت نفسها في الغرفة، خلفه، ورأت الأشياء المعروفة: الفراش

الكبير وعليه غطاء إضافي من النسيج المزين بالورود، الخزانة المصنوعة من خشب الجوز، أكثر قطعة أثاث أناقةً في المنزل، اللوحات والمِدفأة البيضاء، ولكن بدا كل شيء لها متغيرًا كأن ضوء معجزة قد منح للأشياء مظهرًا مختلفًا، سحرًا، كما يحدث عندما تظهر الانعكاسات في المياه أو أيضًا على الزجاج المفتوح لنافذة، وينبعث الوهج من مصدر عجيب، ففي سلة من نبات البَرْوَق، موضوعة بجوار المِدفأة، وحيث توجد المولودة الجديدة بين الوسائد والحفاظات، مستلقية بيديها الصغيرتين في الداخل، كما هو المعتاد آنذاك، ورأسها الصغير يغطيه غطاء رأس صغير مصنوع من الأشرطة الوردية، ومن ذلك الغطاء يظهر وجهها الأحمر المنتفخ وفمها المفتوح من البكاء، كأنه برعم ينشق ليُزهر. بالنسبة إلى كوزيما بدا الأمر مُحبطًا، لأنها تخيلت أختها الجديدة ستكون ذات شعر متموج، شقراء وملساء مثل الطفل في اللوحة الموضوعة فوق الفراش، الذي يمسكه على يده القديس يوسف الطيب ذو الوجه المتورد، الذي إذا نظرت إليه من أي اتجاه يوجه عينيه الزرقاوين كأنه طفل حي.

كانت الأم غافيةً، هي فقط لم تتغير، بوجهها الشاحب وأنفها المعقوف قليلًا، وفمها الذي بَهَت، وشعرها الرَّمادي؛ لم تكُن شابة ولا عجوزًا، بل مثلما عرَفتها الطفلة دائمًا، فهي لم تكُن فرحة ولا تعسة، لكن شبه فاترة، وشبه غامضة. عندما بدا للأب أن كوزيما أشبعت فضولها، أشار إليها بأن تذهب، وذهبت بالفعل، ولكن انتهزت الفرصة دائمًا لتستمر في اكتشاف المنزل. زارت الغرفة الواقعة على الجانب الآخر من بسطة الدَّرَج، مررت إصبعها على الزخرفة الخشبية للأريكة القديمة التي هبط الزنبرك الخاص بها. كان يعجبها الأثاث الغريب عن المعتاد للمنزل، وبما في ذلك أيضًا الكراسيُّ المبطنة من خشب الجوز والقماش الأخضر. كان الأثاث المُكمل لتلك الحجرة الفريدة، كراسيٌّ مثيرة للاهتمام، إذ إن مقعدَها متحرك، ويمكن نزعه من أسفل المقعد لتنظيفه بسهولة. وها هي ذي الآن ترفع أحدها ببطء، وهي تلاحظ حشوه الداخلي الذي تدعمه شرائط عريضة من القماش، وفكرت في أنها إذا احتاجت أن تخبئ شيئًا فهذا هو المكان المثالي. تخبئ! كان هذا أيضًا أحد تطلعاتها السرية والقوية، وهذا كما سيتضح فيما بعد، يربطها بالغريزة بأسلافها الذين سكنوا الجبال وخبئُوا أشياءهم لحمايتها من سرقات الأعداء.

ثم عادت على الدَّرَج. من الأشياء المثيرة الأخرى بالنسبة إليها النوافذ الصغيرة الفارغة المفتوحة على الجدران الداخلية بين مجموعات السلالم، وعندما تطل منها، تتخيل منحدرًا ما، وشلالًا من الحمم التي توقفت لتكوِّن تلك الدرجات المائلة إلى الأزرق، وفوق كل شيء توجد نافذة أكبر، مرسومة، ولكن غير مفتوحة في أعلى الجدار الذي ينتهي بالسقف.

من الذي رسم تلك النافذة التي لا يمكن فتحها، ذلك المستطيل المحفور على الجدار، الذي إذا فُتح أظهر خلفه أفق السماء الكبير والبعيد. ربما نزوة من نزوات البنَّاء، ربما فكر في أن يرفع المنزل طابقًا آخر، ستكون مفيدة فيه تلك الفتحة. على كل الأحوال، تُسحر كوزيما في كل مرة تنظر إليها، تفتحها في مخيلتها، ولم ترَ قط في حياتها أفقًا أكثر رحابةً ولا روعة من ذلك الذي تتخيله يقع خلف تلك العلامة المُترِبة والمليئة بالعناكب. ولكن حتى الخزانة المثبتة في جدار بسطة الدَّرَج من النوعية نفسها، ولأن الصمت عاد مرة أخرى ليسود حجرة الأم، أخذت هي تنزل بحذر، ورفعت ستار البياضات المزين بالزهور الحمراء والصفراء.

العديد من الأشياء الرائعة يثري الخِزانتين المتقابلتين. لم يكُن بإمكان كوزيما الوصول إلى تلك المرتفعة، ولا بد أن تبتعد خطوتين لتستطيع أن ترى ما بداخلها جيدًا، وكان لا يجوز لمس الأشياء الموضوعة في أعلى، تمامًا كما لا يمس المرء الأدوات المقدسة للهيكل. تتشابه «الخزانة» في بعض الأشياء مع الهيكل، فيها أربع شمعدانات مصفوفة، اثنان من النحاس واثنان من الزِّنك، وفي المنتصف زَهريَّة زجاجية. ولكن أفضل الأدوات روعةً هو صحن كبير من الكريستال المحفور بفن كأنه ألماس مستند إلى الجدار البعيد، لا تتذكر كوزيما أبدًا أنها رأتهم يستخدمونه من قبل، ولم تكُن لديها أية فكرة فيما يمكن استخدامه، وهذا يجعله أكثر ندرة، تقريبًا غامضًا، يبدو لها بغموضٍ رمزًا للصحن المقدس، مصدره كَنز قديم، وربما عليه صورة الشمس أو القمر، مثل المرسومة على طبق القربان المُقدس، عندما يرفعه القَس ويجعل الجموع الملتفة حوله تراه. تُبجِّل كثيرًا بالفعل ذلك الصحنَ المرتفع الذي لا يمكن لمسه؛ تبجله — وذلك أيضًا ستفهمه فيما بعد — لأنه كان يمثل بالنسبة إليها الفن والجمال.

توجد الأطباق والقوارير في الخزانة السفلية، بالإضافة إلى بعض فناجين القهوة الرائعة الجمال، بدورها، مرسومة من زهور شاحبة ومُذهَبة رقيقة، ومعها الملاعق الصغيرة النحاسية للقهوة، ذات اليد المشغولة. كان يمكن لإصبع كوزيما أن يصل إليها، ولكن فقط إصبعها، لتلمس إحدى الورود المحفورة على البُورسُلين، كأنها تلمس زهرة حقيقية، ممنوع عليها قطفها. ثم عاد الستار ليسقط من جديد على الآخر، على ذلك الهيكل، على تلك الحديقة، وعادت هي مرة أخرى على الدَّرَج لتعد السلالم، لتصل إلى البسطة الأخيرة التي، تقريبًا، تشبه الموجودة أسفلها. ولكن بدلًا من خزانة الجدار كانت توجد وسيلة أخرى من وسائل الراحة، موقدان، تحسبًا لأن يُضطروا يومًا إلى أن يستخدموا تلك المنطقة مطبخًا. وكانت الصغيرة الحالمة تفكر في أنها في يومٍ ما سيكون عليها هي أيضًا أن تتزوج مثل أمها، ومثل

خالاتها، وأن تسكن هناك في الأعلى. وفي هذين الفرنين عليها أن تُعِد الأطعمة للعائلة. في الوقت الحالي كانت الحجرتان على اليمين وعلى اليسار بأرضيتهما الخشبية التي ما زالت خشنة تقريبًا هما الأفقر في المنزل بأَسِرَّة من حديد، ومراتب القش المليئة بقشر الذرة، ومائدة وبعض المقاعد. ولكن في حجرة الأولاد يوجد ثراء عظيم، فهناك رف مليء بالكتب، كتب قديمة وكتب جديدة، بعضها كتب مدرسية والبعض الآخر مقتنيات ابتاعها سانتوس من المكتبة الوحيدة لبيع الكتب في المدينة الصغيرة. لم تكُن كوزيما تعرف القراءة بعد، ولكنها تفهم من الصور، وعلى الرغم من أن هذا أيضًا ممنوع لمسه فإنها ببطءٍ فتحت كتابًا ضخمًا ذا أوراق سميكة، مصنوعًا من كارتون لونه لَبَنِيٌّ فاتح، وكانت على كل صفحاته نقاط صفراء، هي أيضًا تعرف ما هي: نجوم في سماء الأطلس.

بعد ذلك لم يتبقَّ لها إلا أن تنظر من النوافذ المفتوحة، إحداها تطل على الطريق، والأخرى على المساحة المفتوحة على الحديقة، وحدائق الجيران. تنحدر تلك الحدائق لتصل إلى الوادي غير المرئي الذي منه ترتفع الجبال، جبال رَمادية قريبة بها بقع من الغابات، وأشكال تكوِّنها الصخور وأبراج من الجرانيت، حيث الجبال البعيدة ذات الأحجار الكِلْسية تميل للون الأزرق، وتكاد شمس مايو تضيئها، وجبال أخرى أيضًا أكثر ارتفاعًا وأكثر زرقة، تلك المتلاشية، جبال الأساطير والأحلام.

كانت النافذة التي تطل على الطريق أقل جمالًا، ولكنها أيضًا مثيرة للاهتمام ومليئة بالحيوية. لا يوجد سوى رصيف ضيق يمتد أمام المنزل: ما تبقَّى من الطريق مرصوف بالحصى، بقناة في المنتصف لتجري فيها مياه الأمطار. المنازل متحضرة بما يكفي، تقريبًا كلها مِلكٌ لأقارب السيد أنطونيو. فذاك الذي في نهاية الطريق مِلك لأخيه القَس، دون إينياتزيو، رجل مهمل في مظهره ومدخن شره، ثم يأتي بعده منزل العمة باولينا، أرملة ثرية، أولادها رعاة ومزارعون، يليه منزل العمة تونيا، وهي أيضًا تعيش في رغد، ولديها ابن يعمل في محل بقالة. مات أبو ذلك الصبي، بيد أن العمة تونيا ليست أرملة، لأنها تزوجت مرة أخرى، ولكن بعد شهر من الزواج طردته خارج المنزل، ولكنها لم تنفصل عنه رسميًّا. وهي امرأة لطيفة مليئة بالحيوية والذكاء، والأشخاص المرحون في الحي يزورونها بشكل يومي في ساعات الراحة، يلعبون معها الورق ويتناقشون، ويتبادلون النكات، ويقيمون حفلات تنكرية، وينشرون البهجة في الحي كله.

بيد أن أهم المنازل كان ذلك المنزل الذي يواجه منزلهم، والذي يسكنه الكاهن، قلعة حقيقية بساحات وحدائق داخلية، إحداها تشبه الحدائق المعلقة، مليئة بالورود، وأشجار

الرمان، وبها أيضًا شجرة توت عالية، مليئة بفاكهة صغيرة بَنفسَجية. ومن هناك يمتد مشهد المنازل والأكواخ، وهو — في تلك النواحي — المنظر الأكثر تميزًا وشعبية في المدينة الصغيرة، ويبرز الجرس الأبيض لكنيسة «المِسبحة» فوق الأسقف المنخفضة والقاتمة كأنه منارة بين الحواجز المَرجانية.

الآن يجلس السيد أنطونيو في حجرة الطابق الأرضي على مكتبه، ويكتب مراسلاته، يستخدم لذلك بعض الأوراق الكبيرة والمربعة، وعندما ينتهي من كتابة الخطاب بخطه المنمق والواضح يطويه بطريقة تكوِّن ظرفًا، ثم يغلقه ويختمه بطبقات دائرية صغيرة ملونة تُعَد هي أيضًا إحدى الأشياء المشوقة بالنسبة إلى كوزيما. تتعلق المراسلات تقريبًا كلها بأعمال جادة. أحد تلك الخطابات موجه لشركة شحن على الساحل تتولى تحميل فحم السيد أنطونيو ورَماده على سفينة تجارية. خطاب آخر لمالكٍ يرغب في أن يبيع غابة، لغرض التقطيع وتحويلها إلى فحم ورَماد، وخطاب آخر لرئيس المهندسين في منطقة «الأبينيني» في مقاطعة «بيستويا»، والذي يجب أن يحضر مع نواة من عماله، خبراء صناعة الفحم، إلى المكان. ولكن يوجد أيضًا خطاب صداقة للسيد فرانشيسكو، رجل صاحب أملاك في مدينة تبعد حَوالَي خمس ساعات سفر على الحصان من المدينة الصغيرة. منذ عدة أعوام نشأت علاقة صداقة بين السيد أنطونيو والسيد فرانشيسكو، بل هما أقرب من مجرد صديقين، حيث إن السيد فرانشيسكو هو الأب الرُّوحي للصغيرة كوزيما، والآن يكتب له صديقه ليعلن له مولد الطفلة الأخيرة، ويدعوه لحفل العماد الجديد.

ثم بدأ الزوار يتوافدون. في البداية حضر دون سيباستيانو، أخو والدتها. في تلك الفترة اعتاد الكهنة اختيار هذه المهنة لأنهم لم يكونوا يعرفون مهنًا أخرى، ولكن الخال سيباستيانو على الرغم من فقر عائلته فإنه اختار مهنته منطلقًا من دعوة مخلصة. كان رجلًا ذكيًّا ومثقفًا أيضًا، يفهم في الأدب ويعرف اللغة اللاتينية جيدًا، حتى إنه في إحدى المرات عندما وجد نفسه في روما مع كاهن بولندي لا يعرف الإيطالية تفاهما جيدًا باستخدام لغة شيشرون. وهو على عكس كاهن الأسرة الآخر، دون إينياتزيو، أخي السيد أنطونيو، يحب الفقر، وكان شخصًا مرحًا، وضعفه الوحيد أنه يتجرع منذ الصباح كئوسًا من المشروبات الكحولية والنبيذ الجيد.

كانت كوزيما هي من استقبلته، لأن أباها ينهي خطاباته. جلس بقدميه مفتوحتين في حجرة الطعام، وهو يخفض من جلبابه على بنطاله الأسود الذي يتدلى منه جيبان عريضان مليئان بالأوراق والكتب وأشياء أخرى. وضع قبعته على المائدة بجواره، واستنار وجهه الوردي القوي عندما قدمت له الخادمة كأسًا من النبيذ الأبيض. اقتربت منه يد أختها

الصغيرة أيضًا بثقة، وجذبت أحد الجيبين الغامضين، اللذين كانا يجذبان الأطفال كما أوصى يسوع، بل وأدخلت يدها الصغيرة في تلك الفتحة الشبيهة بالجراب وأخرجت منها قطعة حلوى صغيرة مهروسة في غِلافها من الورق الخفيف. أرادت كوزيما أن تنهرها، ضربتها ضربة خفيفة على يدها، ولكنها رغبت هي أيضًا في أن تفتش أعمق في جيبَي خالها. تركهما، وهو يضحك، ثم أخذ الطفلتين على قدميه وضمهما إليه بقوة، وهو يُخرج من جيبه الحلوى، والفواكه المجففة، وأشياء أخرى من عمق جرابه. وأخرج أيضًا عددين من مَجلة «الوحدة الكاثوليكية»، الجريدة التي غطى حوافَّها اللونُ الأسود حدادًا على فقد البابا لسلطته المؤقتة، وأعطاهما للسيد أنطونيو، الذي دخل في تلك اللحظة. كانت الجريدةَ الوحيدة التي يقرآنها، وهما يتبادلانها فيما بينهما. في ذلك الصباح أيضًا تناقشا حول مقال دون مارجوتي، ثم النقد اللاذع الموجه إلى زوجة أحد وزراء الحكومة الغاصبة، لأن السيدة قد شوهدت في حفل راقص بثوب يُقال إن ثمنه مبلغ خيالي يصل إلى عشرين ألف ليرة.

ثم ذهبوا جميعًا، والطفلتان أيضًا، اللتان كانتا تتعلقان في جلباب خالهما كأنه لامرأة، لرؤية الوالدة.

الفصل الثاني

كان ذلك واحدًا من أطول وأصعب الشتاءات التي يمكن لأحد تذكرها. في البداية هبط كثير من الثلج ودَفَن الجبال والمدن، وأمام المنزل ارتفع في ليلة واحدة لأكثر من متر ولذلك لا بد من حفر ممر في المنتصف ليستطيع الناس المرور دون أن يغرَقوا فيه. في البداية فرح الصبية، وخاصة أولئك الذين يرغبون في عذر لكيلا يذهبوا إلى المدرسة. صنع أندريا في الحديقة تمثالًا ضخمًا، وضع فيه ثمرتي كَستَناء للعينين، ووضع له بيريه من الفراء على رأسه. حاول سانتوس الذَّهاب إلى المدرسة، ولكنه اضطُر إلى العودة لأن المدارس تقع في دَير عتيق على الحدود البعيدة للمدينة، وكان الثلج مرتفعًا إلى حد كبير، ولم يسمح لأحد بالوصول. عندئذٍ أغلق التلميذ على نفسه باب الغرفة العليا، في برد يشبه برد سيبيريا، وأخذ يدرس. كانت أكثر من تتسلى هي كوزيما. لأول مرة كانت تشهد الثلج في كل جماله الرهيب، وتبدو الأشياء لها كبيرة بلا نهاية، تحولت كلها إلى سحب.

مشهد آخر كان رائعًا بالنسبة إليها هو النيران. كانت كل المدافئ موقدة، وأيضًا الموقد الرئيسي في المطبخ، ويبدو أن الشعلات تنبعث طبيعية من الأرضية، تتمايل هنا وهناك، كأن الرغبة كادت تجتاحها لتنفصل وتجري حول المكان، يصعد الدخان تجاه السقف وتجاه كل فتحة، ولكنه يعود مرة أخرى للخلف كأن برد الخارج يطرده، وعندئذٍ يصبح شريرًا ويضايق الناس. لحسن الحظ عاد الخادم إلى المنزل من الحقل في اليوم السابق، حيث كان يبذر القمح، والآن ولأن الثلج أعاقه مكث في المنزل وأخذ يساعد بمئات الطرق، يقسِّم الحطب أسفل السقيفة، ويعتني بالحصان المحبوس في الإسطبل، والخنزير، والدجاجات التي خدَّرها البرد، يقلِّب النار، ويحضر المياه من البئر، ويذهب أيضًا للبحث عن بعض اللحم ليصنع الحَساء لسادته. كانت كل المؤن الأخرى في المنزل، ولا شيء يستدعي أي خوف حتى إن استمر الثلج لأسابيع كاملة. عند المساء بدأت الثلوج تهطل مرة أخرى، كثيفة وبلا

توقف، وقد سُدت وأُغلقت الأبواب والنوافذ في مواجهة العدو، وفي الصمت العميق تتذبذب أصوات المنزل كأنها في ملجأ جبلي.

في حجرة الطعام يوجد أيضًا موقد تجلس حوله الأم والبنات، تحاول كوزيما أن تتخذ مكانًا بين أختيها، ولكنهما كالعادة تبعدانها وتضايقانها على الرغم من توبيخ الأم، وبصبر وصمت تنسحب وتذهب إلى المطبخ، ربما هناك ستكون في حال أفضل، على الرغم من الدخان الذي استمر في تغطية الأجواء. تجلس الخادمة أمام المِدفأة وراحت في النوم، بينما جلس الخادم بعيدًا عن النار، حيث إنه كان رجلًا قويًّا، ويجب ألا يشعر بالبرد، ورغبةً في تقليده يجلس أندريا بجواره، كلاهما يجلس على مقعد منخفض. كوزيما بدورها جلست بجوار الخادمة، ووضعت رأسها في حجرها السمين قليلًا والدافئ.

كان الخادم من قرية قريبة، يُدعى بروتو، وكان قصيرًا وعريضًا، له لحية كبيرة حمراء وعينان خضراوان، ويشبه الرهبان، وكان متدينًا جدًّا وبسيطًا، كانت فيه طيبة رهبان الفرنسيسكان بالفطرة، يقص دائمًا قصصًا عن القديسين. وعلى الرغم من أن أندريا وكوزيما يفضلان الأساطير أو قصص العصابات، فإنهما اعتادا ترك تلك النوعية من القصص للخادم الآخر، الذي كان صديقًا للهاربين وللصوص أيضًا. ولإرضاء سيِّدَيه الصغيرين يختار بروتو طريقًا وسطًا ويحكي حواديت طويلة معينة تبدو كالغراميات.

قال لهم في ذلك المساء: هذه لم أخترعها، فهي قصة حقيقية، حدثت عندما كنت صبيًّا. في بلدتي تكون مدة الشتاء أطول ويكون أقسى من هذا، لأننا نعيش على الجبال، والرعاة لا بد أن ينزلوا مع قطعانهم بحثًا عن العشب، ولم تكُن النساء يخرجن قط من المنزل، وكانت الكباش البرية تهبط من الجبال بحثًا عن الطعام.

سأل أندريا: والذئاب أيضًا؟

– لا، لم تكُن هناك ذئاب، فنحن شعب طيب، وحيواناتنا طيبة أيضًا. لم تكُن هناك حيوانات أعذب من الوعول، التي كانت أنواعًا من الكباش البرية، ولكن أجمل وأكثر رشاقة من الكباش، وبالتأكيد أيضًا غير ضارَّة على الإطلاق. يأتي الصيادون الذين يقتلونها من مناطق بعيدة جدًّا لهذا الغرض، هم أيضًا أكثر قسوة من أكثر الوعول البرية وحشية. ما حدث أنه في إحدى المرات هبط أحد تلك الحيوانات الطيبة مدفوعًا بالجوع، ليصل إلى البيت الأخير في البلدة، وأخذ يدور حوله طَوال الليل. ولا بد أن تعرفوا أنه في ذلك البيت كانت تعيش صَبيَّة، خطيبُها راعي غنم غني، رحل منذ شهر لمراعي الجنوب، ولكن في أثناء رحلته سقط مريضًا بالالتهاب الرئوي، والآن يرقد في بلدة بعيدة، بينما استمر خدمه في

رحلة القطيع. كان أكثر ما يؤلم تلك الصَّبيَّة هو أنها تريد أن تلحق بخطيبها، ولكن لم يسمح والداها بذلك، لذلك كانت تبكي دائمًا ولا تنام ليلًا. سمعت إذن الحفيف الخفيف الذي يُصدره الوعل في دورانه حول المنزل. في البداية شعرت بالفزع، حيث اعتقدت أن هناك لصوصًا، ثم فكرت في أنه ربما قد مات خطيبها، وأن رُوحه قد عادت إلى الأماكن التي كانت تسعدهما، بحثًا عنها.

عندئذٍ نهضت وفتحت النافذة. كانت الليلة باردة، ولكن هادئة وبلا ثلج. كان القمر ينير منحدر الجبل، ويصل نوره حتى منزلها، وفي ذلك الضوء رأت الصبية الوعل، الذي كان يفتش هنا وهناك بحثًا عن الطعام، كان حيوانًا رشيقًا، فراؤه نحاسي لامع من البرد، وكانت عيناه الكبيرتان العذبتان تتلألآن في ضوء القمر. فكرت: بالتأكيد هي رُوحه، وقد اتخذت هذه الهيئة، وقد أتى ليسلم عليَّ قبل أن يذهب إلى العالم الآخر. هبطت إلى الدَّور الأرضي، وفتحت الباب قليلًا، ولكن الحيوان فر. عندئذٍ وضعت هي معطفها وذهبت تجاه جدار أسفل جُرف الجبل. لم يعد الوعل، واقتنعت هي أنها لم تكُن رُوحه. عادت إلى المنزل، ووضعت أمام الباب سلة مليئة بالتبن والشعير، وبعد قليل سمعت صوت مضغ الوعل الجائع. وفي الليلة التالية تكرر الأمر. وفي الليلة الثالثة تركت الباب مفتوحًا ووضعت السلة على العتبة. وفي أثناء جلوسها بجوار المِدفأة رأت الحيوان يتقدم، ثم يرجع، ثم يتقدم مرة أخرى ويأكل. في الليلة الرابعة وضعت السلة داخل المطبخ، قرب الباب المفتوح، وتشجع الحيوان ليدخل. وهكذا، بالتدريج أصبحا صديقين، وتعلقت هي بشدة بحيوانها، حتى شعرت بأنها تحررت من ألمها. أخذت تنتظره كل ليلة، كأنه حبيبها، وإذا تأخر تشعر بالقلق عليه. لم تَحكِ لأحد قط مغامرتها؛ خشية أن يؤذيَ أحدٌ الحيوان، حكتها فقط لخطيبها عندما عاد وقد تماثل للشفاء في الربيع. والشيء الغريب أن أليسيو — هكذا كان اسم الشاب — شعر بالغَيرة. ولكن الآن لم يعد الوعل ينزل من الجبال، حيث إنه لم يعد يشعر بالجوع، بالإضافة إلى أنه في أثناء الأجواء الجميلة كان الناس يمكثون في الخارج وربما يحاول أحدهم اصطياده. اعتقدت الصبية أنها لن تراه مرة أخرى، وتزوجت في الخريف، وفي بدايات الشتاء كان لا بد لخطيبها أن يرحل مرة أخرى مع القطيع والخدم والكلاب.

وها هو ذا، في الليلة نفسها، ليلة شديدة البرد من الثلج، يعود الوعل، وسمعَتْ هي صوت القرنين يطرقان الباب، ونزلت لتفتح وقلبها ينبض، كأنها على ميعاد سري. وبدأت القصة من جديد، أخذ الوعل يتجول بألفة في المطبخ، كأنه كلب، يقترب من النار، والعروس تقص عليه بصوت منخفض أمورها. لم تكُن تصدق الخرافات، ولم تكُن تصدق، مثل

النساء الأخريات في البلدة، أن الأرواح، وغالبًا أيضًا أرواح الرجال الأحياء، تتحول إلى حيوانات، وخاصة في الليل. اعتقدت هذا في اللحظة الأولى، في الظهور الأول للوعل، عندما كانت تشعر بالحزن لمرض خطيبها، ولكن الآن، ولأنها سعيدة، تفكر في أن الحيوان في حد ذاته هو مخلوق رائع حقًّا، ولكنه مجرد حيوان يحبها، وهي أيضًا تحبه، وكانت ترغب في الاحتفاظ به في المنزل، ولكن فكرة حبسه تشعرها بالضيق، ولذلك بعد الزيارة المعتادة تعاود فتح الباب له. والآن نأتي إلى الأمر المهم، في أعياد الميلاد عاد الزوج، لم تكن متأكدة إذا كان لا بد أن تحكي له أم لا عن مغامرتها، ولكنها لم تستطع إخفاء شعورها بالقلق. ومثلما حدث في الليالي الأولى، وضعت السلة بالتبن والشعير في الخارج أمام الباب. وفي صباح اليوم التالي، وجدته كما هو، علامةً على أن الحيوان لم يأتِ. ولم يعد، في كل الليالي التي مكث فيها الخطيب في البلدة. عندئذٍ بدأ نوع من الشكوك يتسرب للمرأة الشابة. أجل بالتأكيد، لا بد وأن يكون في ذلك الحيوان شيء إنساني، فقد كان يُظهر ذكاءً أكبر بكثير من ذلك الذي لحيوان بري. ومن جهة أخرى فكرت في أنه ربما قُتل، وشعرت لهذا بألم شديد. أدرك الزوج هذا، ولم يكُن يعرف أيضحك مما يحدث أم يشعر بالغضب الشديد، لأن أحدهم قد أخبره أن في البلدة إشاعةً أن العروس — على الرغم من أنها تزوجت منذ أسابيع قليلة — تفتح الباب في الليل لرجل غامض يحضر من بعيد، يجري بطريقة لم تدَعْ في الإمكان تمييزَ ملامحه. ومرة أخرى يرحل الزوج الشاب، ويصبح المنزل الصغير حزينًا دونه، وتتغطى القرية مرة أخرى بالثلج. تستيقظ الزوجة لتنتظر صديقها، بلا أمل كبير في رؤيته، ولكن يعود الوعل وكأنه عرَف ذلك بغريزة طبيعية جدًّا. استقبلته وهي مرتعشة، أطعمته، وربَّتت عليه، كانت تسمع دقات قلبه ونهجانه، وتقريبًا كادت تتوقع أن تسمعه يتكلم. وراقبت الحيوان الذي لم يكُن في هذه المرة مستعجلًا الذَّهاب. وشعرت هي بالرغبة في الاحتفاظ به في المنزل، ما الخطأ في هذا؟! وأخيرًا قررت أن تفتح الباب من جديد، فرحل الصديق، وبعد ذلك بدقيقة، ومن خلف الجدار الأبيض الثلجي انطلقت ضربة بندقية وسقط الحيوان، وفي الصمت الرهيب سُمعت الكلاب تنبح، وبعض الشبابيك تُفتح، شعرت العروس بشيء ما، انتظرت أن يهدأ كل شيء، وخرجت لتتقدم في ضوء الثلج حتى وصلت للجدار وعثَرت على الوعل المقتول، كانت عيناه مفتوحتين ما زالتا تتلألآن من الألم. غطته بالثلج بيديها وأخذت تبكي طَوال الليل. لم تُشرْ إلى المغامرة، وعندما ذاب الثلج وعثَروا على جثة الوعل، اعتقد الجميع أنه مات من الجوع ومن البرد، ولم تتحدث عن ذلك مع أحد، ولا حتى مع زوجها عندما عاد. ولكن شيئًا بشعًا حدث، في شهر سبتمبر

وُلد للعروس الشابة طفل، كان جميلًا، بشعر نحاسي، وعينين كبيرتين وعذبتين مثل عينَي الوعل، ولكنه أصمُّ أعقَدُ.

أعجبت القصة كوزيما، وبرأسها المستند إلى حِجر الخادمة كانت تعتقد أنها تحلم، كانت ترى بلدة بروتو، والمنازل المغطاة بالألواح التي سوَّدها الزمن، والجبال اللامعة بالثلج والقمر، ولكن فوق كل شيء اجتاحها انطباع عميق، يكاد يكون محسوسًا، بغموض الحدوتة، ذلك الصمت النهائي، الذي يحمل في طياته أشياء عظيمة ورهيبة، أسطورة العدالة فوق الطبيعية، الحكاية الأبدية للخطأ والعقاب والألم الإنساني.

الفصل الثالث

استمر الثلج عدة أيام، ولكن ما تسبب أكثر في الضرر حدث في فترة من الأمطار الغزيرة التي فاضت لمدة أربعة عشر يومًا متصلة، صحبتها رياح شديدة شرقية ساخنة. الآن لم يعد الدخان يحاول حتى الهروب من المطبخ، فالأمطار تتسرب من النوافذ، وتقطر من الأسقف، انفتح نبع فعلي من القبو، واضطُر السيد أنطونيو على الفور إلى بناء أنبوبة من الحديد لدى الحداد وأن يستأجر رجلين ليُفْرغا المياه من القبو إلى الطريق. والطريق أيضًا تحول لشلال مياه، وتحولت الحديقة إلى مستنقع، وشعروا كأنهم في قارب تتسرب إليه المياه من كل الأنحاء.

ثم مرضت الفتيات، وكوزيما أيضًا شعرت بشيء يخنقها، هوجمت بحرارة مرتفعة جدًّا وبدأت تحلم بأشياء عجيبة جدًّا ومخيفة. كانت ترقد على الفراش في حجرة الدور الأرضي، وفي لحظات الوعي ترى وجه أمها الشاحب ينحني على وجهها، وتشعر بشعور منعش كأن زهرة زَنبَق تلمِس وجهها. ولكن في أحد الأيام، وكان يومَ عيد القديس أنطونيو، بدا كأن هناك قطراتٍ كبيرةً من الندى تتساقط من تلك الزهرة، وكان ذلك الندى حارقًا، وذاقت كوزيما أيضًا طعمه المالح، وكان ذلك مذاقَ أشدِّ ألمٍ يمكن أن يصيب امرأة.

وحضر أحد الأقارب ليسأل عن حال الفتيات، ودخل، وحتى لا يُظهر قلقًا سأل بصوت مرح: اليومَ هو احتفال بقديس رب المنزل. ستكون لديكم مأدبة كبيرة بالتأكيد، أين هو الخنزير الصغير؟

قالت الأم بصوت أجش: «خنزير الاحتفال في الأعلى، في حجرة الفتيات.» وذهب القريب ليرى؛ فقد ماتت جوفانا، الأخت الأجمل بين الأخوات الخمس.

بعد موت جوفانا، تغير مِزاج الأم، أصبحت جادة طَوال الوقت، وحزينة، صامتة ومحبوسة في عالم ينتمي إليها وحدها، تهتم بالأبناء وبما يخص المنزل، ولكن ببرود يكاد يكون آليًّا، وهمومٍ واجبٍ لا تتوقع منه أيَّ مقابل. كانت لا تزال شابة، حسنة المنظر، جسمها جميل، على الرغم من قِصر قامتها، ولكنها أحيانًا كانت تبدو مسنة، منحنية ومتعبة. ربما ينبع سر حزنها من واقع أنها تزوجت دون حب، من رجل يكبرها بعشرين عامًا، يحيطها بعنايته، ويعيش فقط من أجلها ومن أجل عائلته، ولكنه لم يكُن قادرًا على منحها الإشباع والمتعة اللتين تحتاجهما كل النساء الشابات. ولم تكُن هي قادرةً على الحصول على ذلك خارج الدائرة العائلية، لم تكُن تستطيع ذلك بدافع غريزي تجاه الواجب. هل أحبت في يومٍ ما؟ يُقال إنها بالفعل، قبل أن تتزوج، بادلت شابًّا فقيرًا الحب، ولكن لم يتمكن أحد من معرفة من هو، وإن كان له وجود حقيقي. العديد من النساء يعشن على ذكرى حب خيالي، والحب الحقيقي بالنسبة إليهن سر عظيم لا يمكن الوصول إليه مثل الحب الإلهي. بالإضافة إلى أن الجميع في عائلة الأم كانوا يمتازون بالغرابة نوعًا ما. أبوها من أصول أجنبية — البعض يقول إنه كان من جِنوة، والبعض الآخر يقول إنه كان إسبانيًّا — اشتغل تقريبًا في كل المهن، وفي النهاية أصبح مالكًا لبيت ومزرعة صغيرة في الوادي، واعتزل فيها في كوخ، وعاش كالناسك في زراعة الأرض بعض الوقت وفي تربية الطيور والقطط البرية. بيد أن الأبناء أبلَوا بلاءً حسنًا، لأن أمهم الصغيرة ربتهم بورع وتقوى، فمنهم من أصبح كاهنًا وآخر سكرتيرًا حكوميًّا في بلدة قريبة، بينما تزوجت جميع الفتيات، ولكن كان لهم جميعًا طابع مختلف عمن يعيشون في الجوار، كانوا يقولون عنهم إنهم مختلفون عن أولئك السكان الآخرين الحمقى والفضوليين، بينما أبناء الناسك شاردون وحالمون، وعندما يتكلمون يقولون فقط كلمات الحقيقة القاطعة.

وبين هؤلاء الناس، وفي تلك البيئة، كبِرت إذن الصغيرة كوزيما، عمرها الآن سبعة أعوام، وتذهب هي أيضًا إلى المدرسة مع الأخت الكبيرة التي تُكرر الصف الرابع الابتدائي. كانت الرحلة — للوصول إلى الدَّير المُستخدم مدرسةً — مليئةً بالمغامرات بالنسبة إليها، فكان لا بد من النزول من خلال طرق ضيقة غير ممهدة عبر منازلَ صغيرة للفقراء، وصولًا إلى الميدان، حيث يوجد الحي الأرستقراطي ذو المنازل المرتفعة، والشرفات والستائر التي تزين النوافذ. يجلس على الأرض في أحد جوانب الميدان بائعو الخضراوات مع سلالهم المليئة بالخضراوات، وأغلبهم من الخادمات، اللاتي يبعن منتجات حدائق سادتهن، ويحكين عن خصوصيات أولئك السادة. وأحيانًا أيضًا توجد عربة «حنطور» تأتي من البلدان الساحلية

مليئةً بالسمك أو بالبِطيخ والشمام، عندئذٍ يسرع إليها المشترون الشرهون، والسيد أنطونيو نفسه إذا وُجد هناك يشتري كيلو جرامًا من سمك البوري، أو الشمام زكي الرائحة، ويأخذه إلى المنزل بداخل مِنديل يدٍ كبيرٍ مرسومةٍ عليه مربعات.

من الميدان يتخذ الطريق الكبير المحلي الذي يعبر البلدة اسم «فيا ماجوري»،[1] وهناك توجد بناية فخمة تمثِّل — بأروقتها وأفاريزها — الجمال الرائع بالنسبة لكوزيما، ويوجد إلى أسفل قليلًا المقهى بأبوابه الزجاجية، وبالداخل المرايا والأرائك، وهو بدوره يسبب الدهشة لكوزيما، هنا وهناك محلات وبضائع، ومحلات صغيرة تبيع الملابس والأطعمة. ولكن الشيء الأكثر أهمية بالنسبة إلى تلميذتنا الصغيرة هو محل السيد كارلينو للأدوات المكتبية، حيث تُباع الكُراسات والحبر والأقلام، كل تلك الأشياء السحرية التي من خلالها يمكن ترجمة الكلمة إلى علامات، بل والأهم من الكلمة ترجمة فكر الإنسان. تعرف كوزيما بالفعل أن تخط بعضًا من تلك العلامات المدهشة، لأن الخال سيباستيانو علمها إياها، بحيث لا تلتحق بالصف الأول، ولكن بالصف الثاني الابتدائي مباشرةً. للدَّير مدخلان، واحد للأولاد والآخر للبنات، وللوصول إلى مدخل البنات لا بد من صعود بعض الدرجات الخارجية، ثم الدخول إلى ممر طويل مُضيء ونظيف، تُفتح عليه الفصول، فصول صغيرة لا تزال تفوح منها رائحة العزلة، بنوافذ مزودة بقضبان حديدية، غير أنه من خلالها يمكن رؤية الحدائق وسماعُ حفيف شجر الحَوْر والقصب من الوادي في الأسفل. تقف طيور تميل إلى اللون الأخضر على حواف النوافذ، وتمر السحب نحاسية اللون في بداية أيام أكتوبر على الدائرة المنخفضة للون أزرق كثيف ومضيء، ويرن صوت المعلمة، يرن في الصمت، مثل صوت راعٍ على قمة أحد الجبال ينادي على أغنامه الشاردة. ومن بين تلك الأغنام ذوات العيون الكبيرة البلورية زرقاء اللون، فتيات في مجملهن خمس عشرة، لديهن الرغبة في الهروب من السياج، حيث مكانُ رَعْيِ عشب المعرفة، لتَهرعْنَ إلى منعطفات الوادي وتتسلقْنَ أشجار الحَوْر بطول مجرى النهر الجاف. كن جميعُهن فتياتٍ صغيرات، بريئاتٍ بعضَ الشيء، على الرغم من أن بعضهن مثل كوزيما من عائلات ثرية، وتقريبًا من النبلاء، فإن رفيقتَي المقعد واحدةٌ ابنة راعٍ والأخرى ابنة حداد أتى من بلدة بعيدة، وفي الفترة الأولى اضطُر — لفقره المدقِع — أن يسكن في مغارة تبعد قليلًا عن المدينة، ثم

[1] Via Maggiore.

رويدًا رويدًا بدأ يحقق بعض الثراء، والآن يمتلك منزلًا جميلًا وورشة تعمل نهارًا وليلًا. المعلمة أيضًا ليست من المنطقة، بل أتت من مكان بعيد جدًّا، فيما وراء البحر، ولذلك يسمونها «القارية»، كانت امرأةً لا تزال جميلة، بشعرها الأشقر المتموج، ولكنها كانت سريعةَ الغضب وعصبية. تحظى كوزيما فقط منها بترحيب طيب وودود، بيد أن الطفلة بشكل غريزي تشعر بنوع من عدم الارتياح تجاه تلك السيدة ذات الصوت المرتفع والعينين الفارغتين، وتمكث متيبسة في مكانها بجوار النافذة.

لمدة تسعة أشهر من العام شغلت ذلك المكان، مستفيدة من الدروس أكثر من أي تلميذة أخرى، كانت من أصغر الفتيات، ولكنها أكثرهن مهارة، وعندما يأتي المفتش كانت هي دائمًا من تُسأل. ودائمًا تشرِّفهن على الرغم من أن الرجل ذا الرأس الضخم، كرأس كاردوتشي،[٢] والوجه الداكن، يشعرها برعشة فزع، ولكن أيضًا بالإعجاب، حيث كان الفلك المُقدس للمعرفة، ذلك الذي يمكنه بالفعل تفسير الورق المكتوب والصفحات المطبوعة مثل كهنة الكتب المقدسة. وكانت لدى كوزيما رغبة شديدة في المعرفة، فالكُراسات وسَبورة المدرسة تجذبانها أكثر من اللعب، بتلك العلامات البيضاء التي تخطها المعلمة عليها، وتشعر نحوها بسحر نافذة مفتوحة على الأزرق القاتم لليلة تتلألأ فيها النجوم.

نجحت دون امتحان، سلمتها المعلمة خطابًا صغيرًا إلى السيد أنطونيو، به الخبر السعيد، وأخذته هي إلى المنزل وهي تلوِّح به من حين لآخر كأنه عَلَم النصر، حتى إن أختها الكبيرة أخذت من ضيقها تقرصها وتدفعها، ولكن عندما فتح الأب الرسالة ظل باردًا، بل وتخللت ابتسامة ساخرة شفتيه الرفيعتين؛ لأن السيدة المدرِّسة، المعروفَ زوجُها بأنه سكير كبير، وأنها هي أيضًا، كما يُقال، لم تكُن تخجل من تناول بعض كئوس النبيذ الجيد، تطلب أن تقترضَ منه بعضَ النقود.

كانت هذه أولى التراجيديات الكوميدية للحياة التي أعطت لكوزيما درسًا عمليًّا في الحياة.

سرعان ما مرت الأعوام التالية، ثلاثة أعوام في مجملها، لأن الفصل الرابع كان إعادة، وحصَلت هي فيه على الجائزة الأولى، والجائزة عبارة عن كتاب لتومازيو[٣] بغِلاف أبيض

---

[٢] الشاعر الإيطالي جوزويه كاردوتشي.

[٣] نيكولو تومازيو (١٨٠٢–١٨٧٤م): عالم لغويات وصحفي ومحرر قاموس اللغة الإيطالية.

محفور عليه بالذهب. أصبح عمرها عشَرة أعوام، وأضاف نضوجها المبكر إليها أعوامًا أخرى.

في تلك الأثناء أتت عائلتان غريبتان، غير منظمتين، لتسكنا في الحي الصغير، إحداهما عائلة صانع أسلحة، صياد لا يَكِلُّ، وعندما يكون في المنزل يُسمع في الجوار صوت صُراخه في زوجته وبناته الشابات. ومن تلك الفتيات اللاتي دُرن لمدة كبيرة حول العالم تعلمت كوزيما الأسرار التي تصنع من الرجل والمرأة كائنًا واحدًا. لم تشعر بالاضطراب كثيرًا، لأن حواسها ما زالت مغلقة في برعم لم تساعد الحياةُ المليئة بالفضيلة لعائلتها في أن تجعلَها تُزهر. ولكن الأشياء، ولا سيما ما يخص الطبيعة، ظهرت لها بالفعل في بُعد جديد، مثل تلك الهالة التي تتبع الضوء الأبيض المتردد للفجر. ولكن ما سبَّب لها الدهشة أكثر من الحوارات السرية بصوت منخفض لصديقاتها الأجنبيات هي تلك الروائح المختلفة للحديقة الصغيرة، وخاصة رائحة الزنابق والورود. تغلق عينيها بينما تنحني على وردة تفتحت للتو، وينقض عليها من جديد، وبقوة الشعور الداخلي الغامض بحياة سابقة، الذي شعرت به عندما رأت جدتها الصغيرة. فهمت بالفعل شيئًا عنه وحاولت أن تشرحَه لنفسها بشكل ما، مثلما يحاول الشخص أن يفسر الأحلام. وأيضًا بعد أن قرأت في السر كتب أخيها الأكبر، والكتب الموجودة في المنزل، فكرت في حياة بعيدة عنها، مختلفة عن حياتها، بدا لها أنها عاشتها من قبل. وفي ذلك العمر قرأت رواياتها الأولى. واحدة منها هي الشهداء لشاتوبريان،[٤] والتي تركت أثرًا عميقًا في خيالها.

ولكن لا يعني هذا أنه في محيط حياتها لم يبدأ الوجه الحقيقي للحياة في الظهور أيضًا، وأن الأحداث لا تتخذ أحيانًا ألوانًا وتحركات غير معتادة.

أحد تلك الأحداث الأكثر تأثيرًا وحزنًا كان حين اكتشف أبوها في أحد الأيام نقصَ نقود من درجه المغلق بالمِفتاح، لم يخدع نفسه ولو لحظةً، استدعى ابنه أندريا الذي كان يبلغ من العمر وقتها ستة عشر عامًا، وحقق معه طويلًا. ظل أندريا صبيًّا قصير القامة وقويًّا، وليست لديه الرغبة في الدراسة، يتردد على صبية آخرين من عائلات قروية ميسوري الحال وقادرين، وفي الوقت نفسه اعتادت بعض النساء من العاهرات الساكنات في بعض الأكشاك

[٤] Chateaubriand فرانسوا-رينيه الفيكونت دو شاتوبريان (١٧٦٨–١٨٤٨م)، كاتب فرنسي، يُعتبر زعيم الرومانسية في الأدب الفرنسي.

في حي سان بيترو، الأكثر ازدحامًا في المدينة، جذبَ أولئك الشبان المتدفقين بالحيوية، والمتروكين بلا رقابة.

في وقت لاحق أدرك السيد أنطونيو أنه قد منح حرية أكثر مما ينبغي لهذا الصبي الطيب والكريم في العمق، والذي بداخله كل الغرائز البُدائية. ساعده غضب مكتوم، يغذيه الندم، والخوف من المستقبل، وأغراض الحسم والردع، في التماسك في التحقيق الطويل الذي نصبه لأندريا. أنكر الشاب أنه أخذ النقود، عندئذٍ فتشه الأب، وعثَر معه على بعض النقود وعلى المِفتاح الذي يفتح الدُّرج. استمر أندريا في الإنكار. عندئذٍ، أخذ السيد أنطونيو حبلًا وألقاه على أحد عوارض المطبخ، أغلق الأبواب والنوافذ، وأخرج النساء، وقال له بهدوء: انظر يا أندريا، سأنفذ أنا بنفسي العقاب على الفور، إذا لم تعترف بخطئك، سأشنقك بيدَيَّ.

واعترف الصبي.

بدا كل شيء قد انتهى، ولكن ظلالًا ما ظلت تخيم على الأسرة، لأن الأب والابن ظهرا فجأة في ضوء الرعب والموت. وأصبحت الأم أكثر حزنًا، أما كوزيما فقد انحنت مثل أحد زنابقها التي انتزعتها الرياح.

ولكن يبدو أن الشاب قد عدَّل من طُرقه على الفور. فقد أعلن أنه لا يرغب في استكمال دراسة لا تفيده، وأنه يرغب في أن يعمل. عندئذٍ فكر الأب أن يشركه في أعماله، وأرسله ليشرف على أعمال الفحم والرماد التي له في غابات الجبل. ليس هذا فقط، بل أرسله أيضًا في رحلة للتعلم التجاري، مع خطابات تقديم وتوصية لزملائه في العمل في نابولي وليفورنو.

كان سانتوس أيضًا في الخارج، رحل منذ عامين للدراسة الثانوية في كالياري، ووعد بأن يصبح دكتورًا ماهرًا في الأدب أو في الطب، واختار التخصص الأخير، ولكنه لم يهمل دراسته ولا تذوقه للأدب. عندما يعود في الإجازات كان كأنفاس تمنح حياة جديدة تحيي المنزل. يحضر معه الكتب والهدايا، وكان يرتدي ملابس متواضعة، ولكن شديدة الأناقة. كان وسيمًا، وجهه دقيق، يبدو كأنه من جنسٍ مخالف لهم، بعينين واسعتين فاتحتين، تشعان ذكاءً وصلاحًا. لم يكُن يتحدث كثيرًا، ولكنه يتحدث جيدًا، ويتمتع بثقافة موسعة وعميقة، تساعده عليها ذاكرته الرائعة. وأكثر شيء مدهش فيه هو جِدَّته، وأيضًا شبه التقشف في مظهره. لم يكُن يدخن أو يشرب، ولم يكُن ينظر إلى النساء، بل يدرس طَوال الوقت، وأيضًا في أثناء فترة العطلة.

أحيانًا يأتي لزيارته صديق دراسة، كان اسمه أنطونينو، شاب وسيم جدًّا، قمحي اللون، يميل قليلًا للسخرية، ويرتدي ملابس في غاية الأناقة تواكب ما كان شائعًا تلك

الأيام، قبعةً من القش عليها شريطُ تُلٍّ بخِمار في الصيف، ومعطفًا أزرق في الشتاء مربوطًا بأناقة دانونسية[٥] (على الأقل هذا هو الانطباع الذي يمنحه أنطونينو، وهو يدعو الشاعر فقط باسم جابرييله، ذلك الشاعر الشاب الذي شرَّف بلدة كوزيما بإحدى زياراته).

ينتمي أنطونينو بدوره إلى عائلة مختلِطة، ما بين البرجوازية والقروية، فالأم والأخوات ترتدين الأزياء العادية، بينما هو وإخوته، وجميعهم من الطلبة، لهم ذلك الطابع الأرستقراطي. في الواقع كان الأب جامع الضرائب شخصًا خشنًا وهادئًا، لم يتحدث كثيرًا اللغة الإيطالية (مثلما يفعل غيره من السادة النبلاء)، رُوحه مثيرة للإعجاب ونبيل. كان مسكنهم متميزًا للغاية، الأخير في البلدة، يتكون من مبانٍ منخفضة حول بهو مغلق، حيث — بالإضافة إلى عائلتهم — يسكنه أيضًا أقاربُ آخرون، لهم العديد من الأبناء: شيء كالقبيلة، ولكن مكونة من أشخاص متحضرين، بل أيضًا شديدي الذكاء. يدرس الأبناء جميعهم، يتمتعون بذكاء حاد وقوة الملاحظة ويميلون للسخرية. يظهر كَرْم جميل يطل على الوادي ونحو جبال الشمال في انحناءة جميلة مرتبطٌ بالمنزل، وفي وقت لاحق بنى أبو أنطونينو في إحدى زواياه منزلًا مرتفعًا، فيه يعيش الطالب، في الأسابيع القليلة التي يأتي فيها إلى البلدة، يعيش فيه كأنه في برج عاجي، يدرس، أو يتظاهر بأنه يدرس.

كان أول وأطول قصة حب لكوزيما. عندما يأتي ليبحث عن سانتوس، تختبئ هي، وقد تملكها الرعب أن يوجه إليها ولو نظرة بسيطة. ولكن لم يكُن هناك أي خطر، حيث اعتاد أن يمر بجوارها وبجوار الفتيات الأخريات، الكبيرات أيضًا، والأجمل والأكثر خبرة منها، دون حتى أن يَراهُنَّ، وإذا أتى بحثًا عن سانتوس يفعل ذلك لأنه يمكنه معه التحدثُ عن الأشياء وعن الأشخاص الذين يعرفونهما في مدينة الدراسة. ثم إن سانتوس أيضًا يجذبه بتميزه في الذكاء وتفرده.

خلال ذلك الوقت يكرس الطبيب المستقبلي نفسه — على غير العادة — لأشياء بعيدة عن دراسته. يبني على سبيل المثال بالونًا طائرًا، كما أطلقوا عليه آنذاك، وينجح في ذلك بتفوق، لم يكُن أحد يعرف سر جهازه هذا، ولكن المؤكد أن ذلك البالون المصنوع من ورق حريري، الذي لتمويله استطاع سانتوس أن يحصل على بعض الأموال من أمه، خرج في يوم

[٥] جابرييله دانونسيو (١٨٦٣–١٩٣٨م) شاعر وروائي وكاتب إيطالي مسرحي. بدأ حياته الأدبية في روما. نظَم قصيدة «الربيع» ١٨٨٠م، و«أغنية جديدة» ١٨٨٢م، وتميزت الأخيرة بخيال خِصب وإحساس رقيق، وبراعة لغوية لم يبلغْها شاعر إيطالي معاصر.

جميل من بهو المنزل خفيفًا وملونًا مثل فقاعة صابون كبيرة، وطار فوق البلدة، مستدعيًا انتباه وإعجاب الجميع، ولكنه اختفى ولم يعد. بعد ذلك عُرف أنه هبط دون أن يحترق في ركن من الجبل، وبعض رعاة النعاج الصغيرة رأوه يطفو بحرية فوق الصخور، يضيئه الغروب، واعتقدوا أنه شيء فائق للطبيعة، وعندما رأوه يهبط سجدوا جميعًا فريسة لرعب الخرافة، وهم يصيحون: إنه الرُّوح القدس، إنه الرُّوح القدس.

شاعرًا بالزهو من هذا النجاح، حاول الطالب شيئًا آخر: بنى عجلة من الألعاب النارية التي من المفترض أن ترتفع مثل البالون ثم تشتعل بألعاب نيران لتخلق مؤثرات مدهشة، بعض عينات الصواريخ أبلت بلاءً حسنًا، ارتفعت إلى أعلى، في إحدى أمسيات شهر أغسطس، وانفتحت في دوائر من ورود متوهجة، ولكن عندما حاول أن يرفع ويشغل العجلة اشتعلت، وتسببت في فزع شديد للعائلة، وأدى ذلك إلى احتراق يد وذراع المخترع الشاب حرقًا شديدًا. تسبب كلٌّ من الفشل والألم في إحباطه الشديد، وكان لا بد أن ينام في الفراش، ولتهدئة الآلام ومساعدته على النوم خلط الطبيب بعض الأدوية ومعها وضع بعض «الكونياك». خلد للنوم، ولكن كمن أعطوه مشروبًا سحريًّا، فقد استيقظ شاعرًا بالدُّوار، وعندما عاد إليه الألم مرة أخرى، أعد هو بنفسه المشروب ليسقط مرة أخرى في دُوار عميق. تغير مزاجه، وأصبح سريع الغضب وكسولًا، أهمل كتبه، وصار يغيب أيامًا كاملة عن المنزل دون أن يقول أين يذهب؟ كان يبدو أن لا صحبة تعجبه سوى صحبة أنطونينو، يغلقان على أنفسهما الغرفة العليا في المنزل لساعات طويلة، وإذا استطاعت كوزيما بقوة فضولها ومشاعرها التنصت عليهما، تستمع إليهما يقرآن ويعلقان ويتناقشان بصوت مرتفع أعمالًا أدبية. يقرأ أنطونينو أبيات الشعر الأخيرة لشاعره المفضل. وفي صباح أحد الأيام ارتفع صوته أكثر من المعتاد، وفي الصمت الهادئ المتواضع للمنزل العائلي الصغير، انتشر كأنه الموسيقى التي تحكي عن مدن بعيدة، تضيئها النافورات والتماثيل والحدائق التي لا يشغلها سوى العشاق والنساء الجميلات والناس السعداء.

كم من المرات انتظرتها
في صباحات صافية ورقيقة!
وهي لا تزال في فراشها
تضحك من أحلام الصباح.
على ميدان بربيريني
تُفتح السماء الزرقاء كالياقوت،

ويرفع تريتون برنيني
نافورة مياهه الصافية.

في تلك الأيام ماتت الجدة الصغيرة.

الفصل الرابع

كان الصيف بالتأكيد أكثر الفصول سعادةً، تميزه أيام شديدة الحرارة، ولكنه حر ثابت، يكاد يكون لامعًا، وزرقة السماء في موقع منخفض، وتبدو كأنها تلك المرسومة في لوحات زولواجو. عاد أحد الخدم من الحصاد، كأن النيران أحرقته، ثم ألقى بنفسه، وقد أصابته الحمى بالملاريا، على حصيرة في أحد أركان الكوخ. أما النساء اللاتي يعملن في ظلال الأروقة فكن يُلقين بأكوام من ثمار اللوز التي يأتي رجل كل عام ليبتاعها، يضحكن ويغنين أغاني الفلاحين التي تصنع نوعًا من التضاد الغريب جدًّا بين التغريد الثمين لما يلقي به أنطونينو من أشعار في غرفة سانتوس. صرخات من الانفعال، عميقة ومشتعلة مثل تلك السماء التي فوق الأرض تحرقها الشمس. من بين أولئك النساء الشابات القمحيات من لا تفكر في شيء آخر سوى الحب، وتشكو لأنها «تعيش بين الأشواك بسبب حبيبها الوحيد»، ومن تقول لحبيبها: وجهك جميل وخائن مثل يهوذا، ومن كانت تدعو آخر أن يمتص دماءها الحية من قلبها، وأحيانًا يرتفع صوت امرأة غير مخدوعة ليحذر العاشقات، وعندئذٍ يصمت الكورال النسائي، في وقفة تكاد تكون فزعة. وكان التحذير يقول:

يقولون إن الكل ينسى الجندي في الحرب، وحتى الله لا يتذكره. جسدي يعود، بعد دفنه، إلى سبع أُوقيَّات من التراب.

وفي المساء، عندما ترحل النساء، بعد أن جمعن اللوز في أجولة نظيفة، تجلس الخادمة والفتيات، وأحيانًا أُمُّهن، في الرواق الرطب أسفل نجوم الدب الذي تسافر عجلاته نحو بلد الأحلام.

أما الخادم المريض بالملاريا فيتماثل للشفاء بطريقة ما، ينهض ليشارك هو أيضًا في الثرثرة العائلية. كان شابًّا وسيمًا، قريب السيد أنطونيو من بعيد، زيتونيًّا، وأسنانه

ناصعة البياض، يبدو كأنه إثيوبي. وحتى الطريقة التي يفكر بها كانت بربرية إلى حدٍّ ما. يتحدث دائمًا عن العصابات وعن غزواتهم في النهب. لا بد من القول إنه في تلك الفترة كان ما يزال للسرقات المحلية طابع شبه ملحمي.

الكراهية بين العائلات، والعطش للانتقام، ومسائل الشرف، كانت من بين الأسباب الرئيسية لحوادث الدم تلك التي تجتاح حياة البلدة، ومقاطعات بأكملها. بيد أن الخادم الشاب يُجمِّل مغامرات اللصوص بلمسات من خياله، وهو ذاته يترك نفسه لتجتاحه تلك الإيحاءات الشريرة التي تدفعه ليهذيَ بأحلام عن الحرية، وعن عمليات يكون فيها، أكثر من أي شيء، المتمردَ على القوانين الاجتماعية، لديه الطريقة التي بها يفسر شجاعته، وقدرته وقوته النفسية، واحتقاره للخطر وللموت. كان هذا، في نهاية الأمر، نوعًا من الفوضوية، التي بها يمكنه أن يساوي قدره مع قدر الرجال الأحرار، وأن يبتعد عن قدره باعتباره خادمًا، يستطيع من خلالها أن يحطم خيارات الآخرين ويخلق لنفسه قدرة ما، ونظامًا للحياة بخلاف ذلك المعتاد.

في ذلك الوقت بالتحديد، انتشرت عصابة من رجال مسلحين، ومستعدين لكل شيء، وأيضًا في حماية شبكة عريضة من المؤيدين، سواء بدافع الصداقة أو التواطؤ أو الخوف. وغزت العصابة المقاطعة، زعيماها أخوان شابان جدًّا، بشعان، ويُقال أيضًا غاية في الوحشية، كان أساس كراهيتهما للمجتمع هو الظلم الذي تعرضا له، في حكم إدانة في جريمة هما بريئان منها، إدانة استطاعا تجنبها بالهروب. ولكن لا بد أن نقول إنهما، سواء بشكل فطري أم بدافع الغضب من قدرهما السيئ، لم يحترما أملاك الآخرين، وهكذا في خلال بضعة أعوام كونا ثروة، وأصبحا يمتلكان أراضي ومنازل، وماشية، وخدمًا، ورعاة.

في صباح أحد أيام ذلك الصيف الأخير تقدمت امرأة شابة، تكاد تكون طفلة، إلى منزل السيد أنطونيو وطلبت أن تتحدث إليه. استقبلها هو في الحجرة التي يدير فيها أعماله، وسألها بلطف عن مطلبها. كانت ترتدي زي البلدة، وشاحبة الوجه ونحيفة، لها عينان واسعتان سوداوان، يعلوهما حاجبان سميكان جدًّا يعكسان شخصيتها القوية. قالت في شيء من التواضع: سيادتك تمتلك أعلى جبل أورتوبيني، غابة من البلوط الأخضر تؤجرها كل الأعوام مرعًى للخنازير ليأكلوا الجوز، نريد أن نستأجرها الموسم القادم.

قال السيد أنطونيو: إنها مُستأجرة بالفعل، لمدة ثلاثة أعوام وحصريًّا لمالك الماشية إلياس بوركو.

– إن إلياس سيتنازل عنها بكل سرور، إذا سمحت سيادتك بذلك.

– لا أعتقد أنه يمكنه التنازل عنها لكم بسرور، فهو يحتاج إليها.

– إذا قلت له ذلك سيادتك، فسيتنازل عنها على الفور.

بهدوء وثبات، بقبضته الصغيرة البيضاء على المائدة أجابها الرجل: لم أفرض قط على أحد أن يفعل شيئًا منافيًا للعدل.

– ولكنه الآن سيكون شيئًا عادلًا حيث إن أخوي يحتاجان إلى مرعًى من الجوز من أجل خنازيرهما، وكل المُلاك يقولون إنهم قد أجَّروها بالفعل، وذلك ليس حقيقيًّا.

– أنا لا أعرف ما يقوله الملاك الآخرون، كل ما أعرفه هو أن غابتي مُستأجرة بالفعل وحسب!

ثم ختم حواره وهو يرفع قبضته، ولكنه وضعها على الفور فوق المائدة دون أن يدق عليها، بينما اتخذت عيناه الضوء الفضي اللامع للصُّلب الحاد.

لم تستسلم الفتاة، عيناها أيضًا كانتا تلمعان، غير أنهما كانتا داكنتين أسفل حاجبيها الكثيفين.

– ألا تعرف سيادتك مَن أخويَّ؟

ولأن الآخر لم يبدِ أي فضول، أضافت بفخر كأنها تزهو بقرابة الأبطال: إنهما الأخَوان ... ثم نطقت باسم قاطعَي الطرق.

عندئذٍ ابتسم السيد أنطونيو وقال: حتى وإن كانوا الإخوةَ السبعة المشاهير، قاطعي الطرق الذين كانوا يمنحون أسماءهم للجبال التي يختبئون فيها، أنا لن أَحنَثَ بوعدي لإلياس بوركو. وكفى!

كرر، وهذه المرة ضرب المكتب بقبضته كأنه يختم أحد خطاباته بالشمع الملون.

نهضت الفتاة، لم توجه له أي تهديد، ولكنها رحلت دون سلام. لم يقل السيد أنطونيو شيئًا للعائلة، على الرغم من أن جميعَهم أدركوا الزيارة وشعروا بالقلق. شيء غريب حدث في المساء نفسه، في وقت متأخر، بينما الجميع في أسِرَّتهم، وصاحب المنزل فقط ساهر في حجرة الطعام يقرأ عددًا قديمًا لَمجلته المفضلة ذات الحواف السوداء «الوَحدة الكاثوليكية»، طرق فجأةً أحدهم طرقًا خفيفًا على الباب. فتح السيد أنطونيو، ولم يشُكَّ لحظةً في هدف تلك الزيارة غير العادية. كان الشارع مظلمًا، ولكن بفضل الضوء الذي كان يصل من ممر المدخل إلى الباب استطاع أن يرى، في ظلاله، كأنه في لوحة ذات خلفية داكنة، جسمًا عملاقًا، يرتدي زيًّا أسود وسروالًا أصفر، له ملمح شيطاني، وجهه برونزي اللون محاط

بلحية مستديرة، لونها أسود داكن، عيناه يعلوهما حاجبان يشبهان حاجبَي أخت قاطعَي الطرق، ولكن أكثر كثافة منهما بكثير، حدَقَتا عينيه كبيرتان وبياضهما مزرقٌّ.

فكر السيد أنطونيو: لقد ضِعتُ! ولكنه لم يتظاهر حتى بالابتسام ليخفي مشاعره. أدخل الرجل، ولاحظ أنه، على الرغم من التركيب الضخم لجسمه، يسير في صمت وخفة كأنه غزال. ينتعل في قدميه الكبيرتين نعلين من الجلد الخام، مربوطين أسفل غطاء للساق من الصوف الخشن، نعلين لرجل معتاد الجري هاربًا ومبتعدًا ببضع ساعات عن مكان جريمته، بحيث يستطيع أن يوفر لنفسه دليل براءة أكيدة.

فكر السيد أنطونيو: هذا الرجل سيخنقني هذه الليلة. ولكنه على الرغم من ذلك أدخله إلى حجرة الضيوف، ومنحه مكان الشرف أمام المائدة، ولكنه لم يتعجل في أن يقدم له ما يشربه ليشعره بثقته.

وحتى قبل أن يُسأل، بدأ الرجل في التحدث، كان صوته منخفضًا وهادئًا، كلماته بطيئة وحذرة. وعلى الفور تنفس السيد أنطونيو، لأن كل شيء في الإنسان، حتى العين، يمكن أن يكذب، إلا الصوت، حتى إذا حاول الشخص إخفاء ذلك. وكان صوت ذلك الرجل الذي بدا كعملاق أتى من أعلى الجبال الحجرية ليُدمر شيئًا ما لا يعجبه، هو صوت شخص حكيم. والموضوع هو التالي: إيجار غابة البلوط لقاطعَي الطريق. لم يقل إنه كان شخصيًّا مؤيدًا لهما، بل إنه أحد شركائهما، لا يزال حرًّا على قدميه لأنه أذكى بكثير وأشدُّ حرصًا من أن يكتشفه أحد، حكى أنه صديق لهما، لأن هذين البائسين يستحقان أن يكون لهما أصدقاء، من بين عديد من الأعداء الذين يطاردونهما كأنهم يصطادون خنازير برية، ولا ذنب لهما سوى فخرهما باستقلالهما. أولئك الأعداء وصل بهم الأمر إلى أنهم منعوا الأخوين من أن يطلقا قطعان ماشيتهما وخنازيرهما في الأراضي المسيحية، ولذلك فهو يترجى السيد أنطونيو أن يكون رحيمًا على الحيوانات وعلى مالكَيها.

– هذه هي النقود: ألفان، ثلاثة آلاف سكودي، ما تريده سيادتك يا سيد أنطونيو.

أخرج من صدره محفظته المربوطة بشريط من الجلد، وكان على وشك أن يخرج النقود، حينما أوقفته يد الآخر البيضاء، وأمسكَت بيده، بينما حاولت العينان الفاتحتان للرجل المحترم أن تتخلل العينين الداكنتين للرجل العملاق، مثل طفل مطمئن يتقدم في غابة مليئة بالأشواك وكله ثقة في أنه سيجد طريقًا، وقال: أيها الصديق، أنت تعرف أن الأمر مستحيل.

تلك اللمسة، وتلك النظرة، وبصفة خاصة كلمة «صديق» التي قيلت بتلك الطريقة، في تلك اللحظة، كان لهما، كما قال الرجل فيما بعد، تأثيرٌ معجِزيٌّ. أعاد وضع محفظته في

مكانها، ولكنه أصر على طلبه، مبالغًا، ربما بإخلاص من جهته، على الاحتياج المُلح لحماية ونجدة الأخوين «س» من قِبل الأشخاص الخيِّرين الذين يدركون حظهما التعس.

قال السيد أنطونيو: النجدة الوحيدة التي يمكن أن أقترحها على الهاربَين، هي أن يسلما نفسيهما على الفور للعدالة، قبل أن يتأخر الوقت أكثر من هذا، لهما، ولأصدقائهما أيضًا.

نظر الرجل بسخرية، وأصبح وجهه، في تلك اللحظة بالتحديد، يشبه وجه الشيطان، ولكن الآخر استمر: سنتقابل مرة أخرى في أحد الأيام، وعندئذٍ ستخبرني بأنني كنت على حق. إن هذين الشابين مثل حجرين قُطعا من قمة الصخرة، سقطا بينما يجذبان حجارة أخرى، وفي أثناء انحدارهم سيتحولون جميعًا إلى انهيال جبلي، وينتهي أمرهم جميعًا في الهاوية.

تمتم العملاق: بالتأكيد، إذا لم يساعدْهما أحد. من السهل التحدث بهذه الطريقة، ونحن نجلس أمام مائدة هادئة، ونمسك بورقة في يدنا. لكن لا بد أن نضع أنفسنا في مكانهما، نتخيل الصعوبات، لنستطيع التفكير بطريقة أخرى. ولا بد من التحدث معهما، وليس مع سفرائهما.

– أنا على استعداد للتحدث معهما، وإقناعهما بتغيير طريقهما. وفِّر لي لقاءً، أين ومتى يرغبان، سأتحدث مع هذين البائسين كأنني والدهما.

تحمس رجل الجبل على غير العادة. كان يفكر في أنهما، نظرًا لشهرتهما بقوة حجتهما المندفعة والمتحمسة، ربما استطاعا إقناع السيد أنطونيو، ويكسبان بذلك صديقًا جديدًا و«حاميًا» قديرًا؛ لصلاحه وشهرته بالاستقامة. وافق على تناول كأس النبيذ التي قدمها له مضيفه، ومضى بصمت، بعد أن وعد بأن يعود. عاد، في الواقع، ولكن بالنسبة إلى الحوار مع الأخوين «س» لم يتمكن من أن يصل إلى شيء. لم يهتم اللصان، وضحكا على الكلام الرومانسي للسيد أنطونيو، بأن يسلما نفسيهما، هل يمكن لمحارب بربري يدافع عن حريته وسمعته الدموية ليعيش، أن يسلم نفسه سجينًا لأعدائه؟

بيد أن نبوءة السيد أنطونيو قد تحققت. من جريمة إلى جريمة، ومن عملية خطف إلى أخرى، سقطا هما وعصابتُهما في الهاوية. ومن بين المخدوعين المندفعين خلفهما، ذهب أيضًا الخادم الشاب الذي كان مصابًا بالملاريا والتطلعات، مما أثار ألم السيد أنطونيو وعائلته كلها. يواكينو الذي دون أن يرتكب أي وزر، وفقط من أجل حبه للمغامرة، انضم في الفترة الأخيرة إلى العصابة، وقُبض عليه معهم. وعوضًا عن هذا، عاد رجل الجبل كثيرًا

للسيد أنطونيو، وأصبح «راعي خنازيره». لأعوام طويلة كان أحد أخلص الموظفين المعجبين بالسيد أنطونيو. واعترف أنه في تلك الليلة كان قد أتى بالفعل بالنية الشريرة لأن يقتله إذا لم يخضع لرغبات اللصين.

كان السيد أنطونيو صالحًا وعادلًا، وكان الجميع يحبونه. كان له — دون أن يرغب في ذلك ولا حتى أن يدركه — سحرٌ خيِّر على كل من يقترب منه. كلماته بسيطة وبلا تنميق، ولكن يصعد رنين صوته من عمق نفسه المصنوعة من الحق والتسامح، مثل الموسيقى التي تُعبر عما لا يمكن التعبير عنه. بالإضافة إلى ذلك كان على قدر من الثقافة، وكان في الواقع شاعرًا. درس في كالياري، عندما اعتاد أن يسافر من مدينة لأخرى بالحصان، يأخذ معه كتبه ومئُونته داخل خُرجه مثل راعٍ أو فلاح ذاهب ليغرس القمح في المناطق البعيدة. درس ما سمي في تلك الفترة «الخطابة»، أو دبلوم الحقوق. ولكن في الحقيقة لم يمارس تلك المهنة النبيلة، ولكن اعتاد أن يلجأ إليه الكثيرون من أجل النصيحة والاستشارات القانونية، وهم مقتنعون بشدةٍ بحكمته، وبصفة خاصة باستقامته.

تسببت التجارة في ثرائه. ولكن، مثل أي شخص مبتدئ في العلوم الإنسانية، يغذي أيضًا دراساته الشعرية، وكانت أشعاره عاميةً، ولكنها تقترب من شكل اللغة الإيطالية. كان بارعًا أيضًا بوصفه شاعرًا ارتجاليًّا، يجمع أحيانًا حوله أبطالًا مشهورين في هذا المجال في المسابقات، ويتنافس مع أكثرهم مهارة وإلهامًا. وكانت لديه مبادرات عبقرية، أيضًا باعتباره صاحبَ أراضٍ ومزارع، فيحاول زراعة الموالح والسُّمَّاق والشمندر، ولكن تيبس الأرض الصخرية — التي حرقتها فترات الجفاف الطويلة — أجهضت مجهوداته. أسس أيضًا مطبعة صغيرة وطبع على نفقته الخاصة جريدة صغيرة وأشعاره وأشعار أصدقائه، ولكن انتهى هذا المشروع أيضًا بالفشل التام.

في ساعات الراحة — في الموسم الجيد — يجلس في ظلال منزله أمام الباب، وهو يطالع الصحف. يصافحه كل من يمرون، بل منهم من يتوقف للتحدث معه، وإذا مرت سيدة محتاجة يُخرج هو من جيبه في صمت نقودًا ليعطيها لها، وهو يشير بإصبعه على فمه بألا تتكلم. وهكذا كان كل من يمرون يشعرون بالسلوى.

بالإضافة إلى أنطونينو، كان يتردد على المنزل تلميذ شاب آخر، رفيق دراسة لأندريا. صبي نحيف ذو ملامح قاسية، عيناه هادئتان ومليئتان بالشك، معتد بنفسه وطموح، وجِديته غير معتادة على من هم في سنه. ولكن هو أيضًا ينتمي إلى عائلة مختلِطة، لم تكُن برجوازية، ولكنها لم تكُن أيضًا قروية فقط، بل يفتخر بأنه كان ينتمي إلى الجنس القديم

الأصلي. يسكن في منزل مظلم في آخر ممر مغلق، يكاد يكون محاطًا بالأسوار كالسجن. وكانوا جميعًا في العائلة: الأب طويل القامة وتقريبًا مسن، والإخوة، والأخوات إحداهن شديدة الجمال وذات عينين لونهما سماوي نادر، يتميزون بنوع من قسوة مأساوية تقريبًا. لم يكُن لديهم الكثير من النقود، إلى حد أنه عندما تعلق الأمر بأن يرسلوا أحد الأبناء للدراسة إلى كالياري اضطُروا إلى القيام ببعض التضحيات. ولكن جونماريو، الطالب، كان يبشر بالخير. وفي أثناء تلك الإجازات الأخيرة، وبينما يستعد للرحيل، أصبح يزورهم كثيرًا. في كل الأمسيات يبحث عن أندريا، على الرغم من أنه يعرف أن الصديق لم يكُن في المنزل، وكان يجمع كل الأعذار ليتأخر مع الفتيات. تثير حواراته اهتمامهن، بالإضافة إلى أنه يحمل إليهن أخبار البلدة، كل النميمة، والقصص المرتبطة بالحب البريء بين الطلبة وفتيات المنطقة. كانت كوزيما، وأكثر منها إينزا، تستمعان إليه مسحورتين. وكانت إينزا حقًّا آنسة غريبة قليلًا، أحيانًا تميل إلى الصمت وأحيانًا أخرى تنتابها حالة من الفرح غير العادي والهيستيري.

وسرعان ما أدركت أنها وجونماريو قد ارتبطا برباط الحب، وأخذا يعثران على الطرق ليتقابلا في السر، وزاد اعتراض عائلتها، التي تأمل في زيجة أسرع وأكثر متانة من هذه، على عشقهما. كان عشقًا حقيقيًّا يغذيه الطابع العنيف قليلًا للفتى والفتاة. أخذ جونماريو يدرس بإصرار عنيد، وخلال عامين فقط نجح في امتحانات الثانوية، وسجل نفسه في كلية الحقوق. ولكن الدراسة والحرمان والكبرياء من الرفض المستمر لعائلة إينزا جعلوه كئيبًا وعصبيًّا، أحيانًا تتحول عروق عينيه إلى اللون الأحمر، ويصبح صوته خشنًا وكلماته تحمل الكثير من المرارة.

بيد أن أيامًا تعيسة حلت أيضًا على عائلة كوزيما. لم تكُن أحوال أندريا على ما يرام، يُقال إن له ابنًا بالفعل من فتاة جميلة ذات سمعة سيئة، وإنه يرافق الكثير من أصدقاء السوء. باءت محاولات السيد أنطونيو لإعادته إلى الطريق المستقيم بالفشل، أرسله ليشرف على أعمال الفحم، وأن يشرف على المزارع. كان أندريا يطيعه، وكان ممن يُقال عنهم طيب وشديد الكرم، ولكنه أصبح أيضًا تابعًا لغرائزه الحسية والمندفعة. والآخر أيضًا، الأخ الكبير، بعد مأساة النيران الصناعية، قد تحطم. تحطم مثلما يتحطم فنجان من الكريستال في سقطة، كما تتحطم زَهرية من البورسلين. استمر في دراساته في جامعة كالياري، بينما استطاع أنطونينو، لأن عائلته كان لديها ما يكفي من نقود، أن يذهب إلى روما.

ربما أيضًا تسبب بُعد صديقه في مزيد من الضرر على سانتوس، بدأ يتردد على أصدقاء أقل ذكاءً منه، وانتهى به الأمر لأن يطلب نقودًا أكثر من المعتاد. وعرَفت عائلته بأنه يدرس أقل مما سبق، وأنه يشرب الكحول. وتسبب هذا في حزن عميق للجميع.

أصبح السيد أنطونيو مهمومًا، وأصبحت الأم أكثر صمتًا وحزنًا. ما العمل؟ فالحياة تستمر في مسارها المتعنت، كالنهر، فهناك أوقات هادئة، وأوقات مضطربة لا يمكن الاحتماء منها. يحاول المرء، بلا فائدة، أن يسدها، أو أن يلقي بنفسه في مواجهة التيار ليمنعه من اجتياح الآخرين. إنها قوًى مُظلمة وقدرية، تدفع الإنسان نحو الخير أو نحو الشر، فالطبيعة نفسها، التي تبدو كاملة، تضطرب من لحظات عنف أقدار لا يمكن الصراع معها. انحنى السيد أنطونيو، وانحنت أكثر منه السيدة فرانشيسكا، أمام المنحدر الحاد الذي يبدو كأنه ينهار أسفل أقدام أبنائهما، وكانا يلومان نفسيهما، كلٌّ على حدة، لأنهما لم يعرفا أن يُمهدا، من خلال التربية، والطاقة المُنفقة والصلابة والتضحية المبذولة في كل ساعة، أرضًا أكثر صلابة وأمانًا ليسير عليها الأبناء. ابتاع السيد أنطونيو لهم الأراضي والماشية، وقامت السيدة فرانشيسكا بتوفير حتى المِلِّيم، ولكن ما فائدة هذا؟ ربما أدى ذلك إلى الضرر، لأنه ربما أجبر عدمُ وجود الرخاء والمستقبل المضمون الأبناءَ على العمل، وأن يخلقوا لأنفسهم وضعًا أفضل في الحياة.

ولكن ربما لم تكُن هذه سوى أوهام، لأن هناك الكثيرَ من النماذج لأناس فقراء أو محدودي الدخل دفعهم قدرهم من ألم وذنب إلى مصير أتعس حالًا مما وصل إليه أخوا كوزيما. ومثال على ذلك هو حالة البائس يوانيكو. وحالة أخرى أيضًا أكثر ألمًا أصابت أحد أبناء العمومة، ابن أخت السيد أنطونيو، سيدة حاسمة وشديدة الذكاء، فقدت زوجها في سن الشباب، ومع أبناء كثيرين عليها تربيتهم، كانت تمتلك في الحقيقة ما يساعدها، وأيضًا ساعدها أخوها الآخر الكاهن الذي كان يعيش معها، ولكنها كانت امرأة مشاكسة، تتشاجر بلا سبب مع من يجاورونها في الأرض وفي السكن، وابتلع المحامون ومصاريف القضايا جزءًا كبيرًا من دخلها. ولأنهم كانوا من صغار المُلَّاك اعتنى أبناؤها بممتلكاتهم بأنفسهم، ولكن ابن العم كان دمويًّا وطموحًا وعنيفًا، وبدأ بسرقة بعض رءوس الماشية لينمي عدد قطعانه. وعندما كشفوه عوقب. كان عمره خمسة وعشرين عامًا، وسيمًا وطويل القامة وقويًّا. ربما أصبح في الحرب قائدًا عظيمًا.

ولكن هذه هي الحياة والبيئة والقدر. وأيضًا في منزل كوزيما دخل إليهم الشر المخادع والسام، الذي لا بد منه، مثل كل شرور العالم. حتى أندريا انحرف هو أيضًا، في إحدى

الليالي، عندما اشترك في إحدى عمليات السطو التي يقوم بها بعض الشباب بدافع المغامرة أكثر من الشر. سرقوا بعض الدجاج، ولكنهم هم أيضًا قُبض عليهم. سادت حالة من الحِداد، أقوى من حداد الموت في منزل السيد أنطونيو، حيث شعر بالحزن الشديد وبذل قصارى جهده لينقذ ابنه، ثم أصابته انتكاسة ومرض. كانت شهورًا عديدة من الألم الذي يلتهمه، وأيضًا من الاكتئاب، حتى سقط الرجل الصالح، الرجل الحكيم والعادل، وظلت العائلة مثل العشب المسكين ترتعش في ظلال شجرة البلوط التي أسقطها البرق.

ولأن العائلة دخلت في دائرة الظلال تلك، استسلمت، ومكثت في انتظار أن تسقط يأسًا في أحد الأيام. ولكن يبدو أن أندريا بموت أبيه عاد لصوابه وتولى هو إدارة الأموال المشتركة، ولكنه كان يستفيد إلى أقصى درجة، بحيث يتبقى فقط ما يكفي بالكاد لدراسة الابن الآخر ودفع الضرائب. تشكو الأم دائمًا من تلك الضرائب، وتقلق كثيرًا بسببها إلى حد عدم النوم في الليل. لحسن الحظ ظلت المؤن موجودة دائمًا في المنزل، والفتيات يرضَين بالقليل جدًّا. استمر الحِداد على الأب طويلًا، شهورًا كاملة ظلت النوافذ مغلقة، ولم تضع أيٌّ من النساء، فيما عدا الخادمة، قدمَها خارج المنزل. ولكن تعزَّت إينزا بأن تكتب خطابات، لا نهاية لها، لجونماريو، واستمرت الفتيات الثلاث الصغيرات الشديدات الذكاء في القراءة دائمًا وهن يتحدثن وأيضًا يتناقشن معًا في تفاهم تام.

أما سانتوس فلم يكُن بخير. بدلًا من أن يعيده موت الأب إلى نفسه مرة أخرى بدا أنه أغرقه أكثر في المنحدر تجاه الهاوية، حيث أخذ يقترب منها يومًا بعد يوم. أكمل دراسته حتى وصل إلى السنة الرابعة من كلية الطب، ولكنه استمر في إدمان الكحوليات. وفي أثناء الإجازة الأخيرة أهمله أنطونينو، الذي لم يعد قط يبحث عنه، ولم يبدُ على سانتوس أنه يهتم بهذا، حيث أغلق على نفسه غير مبالٍ كالحيوان المريض. يمكث في حجرته، ويغلق بابه بالمِفتاح، لأن أندريا استقر في الغرفة التي كانت تستخدم صالونًا، ولم يعد يخرج إلا بحثًا عن الشرب. فيما عدا ذلك لم يكن يؤذي أحدًا، ولم يكُن يضايق أحدًا. في ساعات الصباح المبكر ينزل إلى الرَّدْهة، يصنع لعبًا من القصب لأطفال الجيران. يحبه الجميع، ولكن ظلاله (حين يسكر) تثقل على الجميع وزادت من حزن أمه وأخواته. بعد فترة الإجازة الأخيرة ونحو شهر أكتوبر بدا كأنه استيقظ من ذلك السحر الشرير، أعدَّ كتبه وقال إنه سيفعل كل ما يمكنه لينجز دراسته في العام الأخير ليتخرج. وأنار قوسُ قزح الأملِ الأفقَ الرَّمادي للعائلة، جُمعت الأموال الضرورية لرحيله، بل وأعطته الأم أيضًا المدخرات القليلة التي كانت تخبئها في حالة أي احتياجات طارئة. كان رحيله احتفاليًّا، ونوعًا من أنواع التحرر

بالنسبة إلى المنزل، فُتحت غرفته ليدخلها الهواء كأنها كانت غرفة ميت أو مريض شُفي بعد مرض طويل، وأخيرًا شوهدت الأم وهي تبتسم وتشترك في حوارات الفتيات المليئة بالحيوية.

بعد ستة أيام من رحيل سانتوس سمعوا في وقت متأخر شخصًا يطرق الباب باستمرار، وما زالت كوزيما تتذكر بعد نصف قرن من الزمان ذلك الطرق الشبيه بالطبل الذي يعلن عن مأساة. ما زالت تسمعه يدق داخل قلبها، إنه أبشع صوت سمعته في حياتها، أكثر كآبة من ذلك الذي يعلن الموت، أكثر من صوت الجرس الذي يدعو لإطفاء حريق. قامت الخادمة الطيبة، وقبل أن تفتح كانت تحاول أن تتسمع بقلقٍ مشوب بالخوف، من يكون هذا؟ قاطعَ طريق، لصًّا، رجلَ عدالة؟ وربما يكون شبحًا أيضًا، ميتًا يمر في الطريق ليطرق الأبواب ليعلن للأحياء عن الجحيم الذي ينتظرهم.

كان شيئًا أسوأ من هذا، كان ميتًا حيًّا يعلن عن الجحيم، بالفعل، ولكن قبل الموت، في الحياة نفسها.

كان سانتوس بعينيه الزرقاوين يحجبهما السُّكْرُ واللسان المعقود.

ولقياس شدة تلك الكارثة لا بد من أن يضع في الحسبان عدم قدرة البيئة التي يعيش فيها على تقبل هذا. كان الجميع يعرف بعضهم بعضًا في المدينة الصغيرة، وكانوا يُدين بعضهم بعضًا بقسوة، وكان من يستطيع أن يلقي بالحجر الأول هو الأكثر تصلبًا. عندما عُرف خبر العودة وحالةُ سانتوس كان الخبرُ سببَ فرحٍ وشماتة بين معارف العائلة، وكان الأردأُ هم الأقارب. كانت للسيدة فرانشيسكا ابنتا عم عانستان عجوزان تعملان في خدمة كاهن، كان شخصًا قديسًا بالفعل، وكانتا موجودتين دائمًا في الكنيسة. من حين لآخر تذهبان إلى منزل كوزيما قاسيتين ومهندمتين جافتين كأنهما مومياوان. لم تتحدثا كثيرًا، ولكن كل كلمة منهما كانت كالسهم، عن كل شيء، بل أيضًا عندما تسير الأشياء على ما يرام، تجدان ما تنتقدانه، حتى عندما ترتدي الفتيات ملابس بسيطة جديدة أو يتزيَّنَّ بشريط اقتصادي، ربما مقطوع من مِنديل من الحرير. هجمتا على المنزل في اليوم التالي لعودة سانتوس، وأبكتا السيدة فرانشيسكا، بعد أن حمَّلتاها تبعة الفوضى العائلية. بدا كل شيء حولهما كالمأساة، وكان الأمر كذلك بالفعل، ولكن ربما — على الأقل بالنسبة إلى الفتيات — لا شيء يمكن إصلاحه. لا يمكن إصلاحه، هكذا كان الأمر بالنسبة إلى العانستين العجوزين، اللتين بدافع الغريزة، وبلا أي شر مقصود، تسكبان على قِدر الآخرين كلَّ عدمِ توازنٍ في قِدرهما. وشنَّتا هجومًا خاصًّا — كأن الأول لم يكُن يكفي — على إينزا، وهما تعرفان قصة

حبها لجونماريو، السرية والمكشوفة. بالنسبة إلى الخالتين الغضوبتين والعاقرتين اللتين لم تعرفا الحب قط، تكاد قصة الحب البريئةُ، والحزينة في واقع الأمر، بين الشابين الحبيبين، تكون مأساة بشعة تقريبًا ببشاعة إيزوتا الشقراء وتريستانو[1] أو باولو وفرانشيسكا.[2]

توقَّعتا أسوأ مصير للفتاة غير المهذبة التي لا تخجل، وتمتمتا بأنه بسببها حلت اللعنة على العائلة والأقارب جميعهم، بل وأصبحا موضع احتقار لكل الصالحين، وأن العار سيقع أيضًا على الأخوات اللاتي لن يعثرن أبدًا بدورهن على أزواج.

كانت الأم تبكي، ماذا يمكنها أن تفعل سوى هذا؟ بالتأكيد لم تكُن هي أيضًا سعيدة بقصة إينزا، على الرغم من أنه بعد المآسي العائلية الأخيرة خفتت عداوتُها لجونماريو، وأصبحت ترى في وجود رجل مثله، منظم ونشيط، في المنزل، مصدر عون كبير. ولكنها لم تَردَّ على الادعاءات بالعار لابنتي عمها، وكان تواطؤها بالصمت من أكثر الأشياء التي أغضبت إينزا، التي كانت تسترق السمع من خلف الباب. فجأة سُمعت أصوات صُراخ وعويل، وصوت جسم يرتطم أرضًا. كانت هي، الفتاة التعسة، التي أصابتها صدمة هيستيرية، تكاد تكون حالة تشنج عصبي. عندئذٍ قامت الأم، مثل الغزال الذي أصيب ابنه، ووجدت في نفسها الطاقة لتطرد المرأتين، وأن تَحملَ وتهدِّئَ طفلتها. لأن كلَّ الأبناء، بالنسبة إليها، وبما فيهم أكثرهم انحرافًا، بل ربما هو أكثر من الآخرين، مخلوقاتٌ ضعيفة سيعمل الرب على نضجها ويعيدها إلى صوابها.

وأصبحت النتيجة هي الاعتراف بجونماريو خطيبًا لإينزا، وحُدد تاريخ الزِّفاف للصيف التالي، بمجرد أن يتخرج. كان فرحًا متواضعًا ويكاد يكون حزينًا، لم يكُن ذلك الذي حلَم الأب بإعداده لبناته.

ومُنح العروسان دخلًا بسيطًا، وعُهِدَ إليهما بمنزل قديم تمتلكه العائلة في أحد الأحياء المتطرفة في المدينة مَسكنًا لهما. ولكنه منزل كبير جدًّا، بدرَج حاد، وحجرات واسعة ذات أرضية خشبية، ونوافذ صغيرة، وجدران مبيضة بالجير. شعرت إينزا بالحزن من المنزل

[1] نَموذج من قصص الحب المُحرمة، لضابط أحب زوجة الملك، وعاشا علاقة حب سرية حتى كشف الملك أمرهما.

[2] قصة حب مأساوية واقعية حدثت في إيطاليا حَوالَي نهاية القرن الثالث عشر عن فرانشيسكا التي أجبرها أهلها على الزواج من جوتشانو، ولم تحبه، وأحبت أخاه باولو، وعندما عرَف زوجها بالحقيقة قتلهما. وذكرها دانتي في الكوميديا الإلهية.

وأخذت تعمل على تنظيفه لتجعله مناسبًا للسكنى، تساعدها في ذلك امرأة تأتي بعض الوقت. وسرعان ما بدأت المآسي. كان جونماريو، بمجرد أن يدخل إلى مكتب المحامي يمكث فيه طَوال اليوم وبلا مقابل. يُشعره اعتماده على الدخل الصغير لزوجته للإعاشة بالإهانة ويغضبه. وتَسبب مزاجُها السيئ في أنه بدأ يلومها على استعجالها الزواج، وكانت هي تجيبه بحدة، وبدأت المشاجرات العنيفة تنفجر بينهما، تتبعها عمليات صلح تستمر لفترات قصيرة، ثم يعقبها هروبه، حيث يبتعد عن البيت أكبر وقت ممكن.

في صباح يوم حزين جرت المرأة التي تذهب إليهما للخدمة إلى منزل عائلتها وهي تقول إنها وجدت السيدة الصغيرة ممددةً على الفراش، فاقدةً للوعي، وباردةً كالأموات. أفاقتها، ولكنها كانت تخشى أن يكون أمرًا خطيرًا. كانت السيدة فرانشيسكا مريضةً هي أيضًا، وتعاني من مرض في الرئتين، ورأت الفتيات أنه لا يجب إفزاعها بأخبار إينزا. جرت كوزيما، التي كثيرًا ما تذهب إلى العروسين الشابين، وعلى دراية بحياتهما المضطربة والمؤلمة، على أمل أن يكون الأمر يتعلق بأحد الاضطرابات العصبية المعتادة لأختها. وجدتها، على غير العادة، هادئةً، بل هادئةً أكثر من اللازم، ملقاةً في الفراش، في شحوب شديد، وعيناها جاحظتان. لم تكُن تتحدث ولا تتحرك، وكانت هناك رائحة كريهة وساخنة تتصاعد من الفراش، وعندما حاولت كوزيما — بشجاعة تفوق سنها — أن تكتشف السر أدركت أن إينزا التعسة كانت ترقد على بئر من الدماء السوداء.

وصل الطبيب وقال إن الأمر يتعلق بإجهاض. وحاولوا مساعدتها على قدر الإمكان، ولكن كان الوقت متأخرًا، وقبل أن يعود الزوج من جلسته في المحكمة كانت إينزا قد ماتت. ماتت بلا ألم، فاقدة الوعي، بعد أن فقدت كل الدم الفاسد والمضطرب، تحول لونها الآن إلى الأبيض، أصبحت جميلة ونقية، مثل تمثال من الرخام نُحت لها. قبل أن تعلن الأمر لأمها ولأختيها، وقبل حتى أن يعود جونماريو، كانت كوزيما بمفردها قد أغمضت العينين الواسعتين الزجاجيتين لإينزا، وغسلت جسدها ونقلتها من الفراش الصغير بالغرفة الجانبية إلى غرفة الزوجية. عطرتها، وصففت شعرها الكَستَنائي الجميل حول وجهها الشفاف، وفي النهاية ألبستها فستان زِفافها الأبيض المتواضع، ووضعت في قدميها حذاءيها الستان. كانت تتصرف — ربما تدفعها قوة فوق طبيعية — كأنها في حالة من حالات الثَّمَل. ثمل من الحزن، من الإحباط والخوف من الحياة التي مثل كل حالات السُّكْر العنيفة، تترك في أعماق من تعرض لها مرارة، بل نوعًا من الرعب، رعب لن يتركها أبدًا بعد ذلك، على الرغم من أنه مدفون بعناية في عمق قلبها مثل سر إثم غامض، لا إرادي. كان الإثم القديم للآباء الأوائل، ذلك الذي جلب الألم على العالم، ويتوارثه كل البشر بلا تمييز.

الفصل الخامس

كان عمر كوزيما آنذاك أربعة عشر عامًا، وأصبحت إذن تعرف الحياة في مظاهرها الأكثر قدرية، ولكن على الرغم من ذلك الخوف الغامض من القدر الذي يعشش في قلبها، ولأن هذا القلب ما زال قويًّا جُسمانيًّا ومعنويًّا؛ لأنها ورثت عن أبيها وعن أجدادها من ناحية الأب — الذين كانوا تقريبًا جميعُهم من المزارعين والرعاة، أي: متوحدين مع الأرض ومع الطبيعة — طبيعةً من الصلاح والذكاء والفلسفة، تشعر في أعماقها بفرحة الحياة.

خلال فترة الطفولة أصابتها الأمراض الشائعة بين الأطفال، ولكن الآن على الرغم من كونها رقيقة ونحيفة كانت صحتها جيدة وكانت رشيقة نسبيًّا وقوية. كانت صغيرة القامة، برأس ضخم، ويدين وقدمين صغار، ولها كل الخصائص الجُسمانية المتوارثة لنساء جنسها التي ربما كانت أصولهن ليبية، بالشكل نفسه للوجه، فكان أنفُها أفطسَ وأسنانُها معوجَّةً، وشفتُها العلوية طويلةً، ولكن كان جلدُها فاتحًا جدًّا ومُخمليًّا، وشعرُها أسودَ جميلًا جدًّا ومتموجًا قليلًا، وعيناها كبيرتين على شكل لَوزتين، لونهما أسود ذهبي وأحيانًا يميل إلى الأخضر، بحدقتين كبيرتين مثل نساء جنس حام، التي أسماها شاعر لاتيني «حدقة مزدوِجة»، وكان من الصعب مقاومة جاذبيتها المتقدة.

بدأ الحِداد مرة أخرى بموت إينزا، وأُغلقت النوافذ مرة أخرى، وعادت الحياة لتصبح مغلقة بالفعل. ولكن كانت توجد خميرة حياة، وازدهارٌ للانفعالات، وتفتُّح طازج لذكاءٍ مشابه لذلك الذي يحدث في المراعي المليئة بالزهور البرية التي أحيانًا تكون أجمل من تلك الموجودة في الحدائق، يجمع بين الأخوات الثلاث في رقصة صامتة مليئة بالجمال والشعر. كانت الصغيرتان بينا وكوليتا تقرآن — هما أيضًا بشغف — كلَّ ما يقع بين أيديهما، وعندما تجتمعان وحيدتان مع كوزيما يندمجن في مناقشات وتعليقات تُخرجهن

من بيئتهن ومن التحفظات التي تحيط بحياتهن اليومية. وبدأت كوزيما، كأنها مدفوعةٌ بقوة أرضية، تكتب الأشعار والقصص القصيرة.

من جهته، وعلى الرغم من عيوبه الكثيرة، فإن أندريا كان كريمًا ومرحًا. ربما كان كريمًا أكثر مما ينبغي، كرم يغذيه نوع من بعض حب الذات والتفاخر والغرور، ولكن غالبًا ما كان نقيًّا وطبيعيًّا. ثم كانت لديه أيضًا اندفاعات حماسية حقيقية نحو أشياء تبدو للآخرين بلا قيمة أو لا تستحق المساعدة، وهكذا بدا له نوعًا من العدالة أن يضع نفسه في صف الضعيف. وهكذا عندما عرَف أن أخته الصغيرة كوزيما — تلك الفتاة التي تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا وتبدو أصغر من ذلك، تلك التي تمنح انطباعًا بأنها برِّية وخجولٌ كالغزال الصغير — في حقيقة الأمر متمردةٌ ضد كل التقاليد والعادات العائلية، بل والخاصة بجنسها، لأنها بدأت في كتابة الشعر والقصص، وبدأ الجميع ينظرون إليها بنوع من الرفض المندهش، بل ويسخرون منها ويتوقعون لها مستقبلًا مضنيًا. أخذ أندريا يحميها، وحاول بطريقة ذكية جدًّا وفعالة أن يساعدها.

كان قد أنهى دراسته عند التعليم المتوسط، وعلى الرغم من أنه يبلغ فقط الثانية والعشرين فإنه يهتم الآن بإدارة الأملاك التي تركها الأب، ويأخذ منها الكثير من الأرباح له ولمتعته الشخصية. ولكنه يقرأ أيضًا، وبطريقة ما كان مطلعًا على الأحداث الأدبية. وكانت أصداء تلك الأحداث تأتي إلى المدينة الصغيرة بواسطة أنطونينو، الذي يدرس الآداب، وهو أخو أقرب أصدقاء أندريا.

كان هذا الأخ يُدعى سالفاتوري، وهو أيضًا قد فضل الحياة السعيدة للمالك الصغير، الذي يركب حصانه في مزارعه ويتابع أعمال الخدم، ويتسلى مع الفتيات الجميلات والجريئات في البلدة، عن حياة الدراسة. وكان يسخر، على الرغم من إعجابه به سرًّا، من أنطونينو، ذي اليدين البيضاوين والأظافر المقلمة مثل النساء، وعيناه تملؤهما الأحلام، ولم يكُن يجيد حتى امتطاء البغل الذي يمكن أن تمتطيَه الخادمة بقفزة واحدة للذَّهاب وإحضار الماء من النافورة. ويسخر أيضًا من أنه في حالة من الدراسة الأبدية، في أشهر الجامعات في القارَّة، ينفق كل مُدخرات العائلة، ولا يستطيع ولا يريد أن ينجح في التخرج. على كل حال هذا الطالب الوسيم جدًّا والأنيق شبيه الأمراء (وفي تلك الأزمنة، وفي ذلك المكان، تعني كلمة «طالب» شخصًا أعلى في المقام، ورجلًا يمكن أن يُعهد إليه بأعلى وأقوى الأقدار على الأرض)، يُحضر بالفعل إلى الدائرة العائلية البُدائية والمعزولة، التي تكاد تكون محكومة بالنفي عن العالم الضخم، نَسَمة من تلك العظمة المضيئة جدًّا والبعيدة جدًّا.

يتحدث عن الملوك والملكات، عن شخصيات في مناصب سياسية رفيعة، عن فنانين وأدباء كأنهم جميعًا أصدقاؤه المقربون.

تعلَّم بشكل مكثف عن شخصية جابرييله دانونسيو، بكل ما أحاط به من هالة أسطورية وإشعاع عظيم، يستند عليه قبل كل شيء، كالمؤمن الذي يستند إلى أحد أعمدة المعبد ليتلقى منه القوة والعظمة.

تشعل الأشياء التي يحكيها أنطونينو الصالح والبطل الأحلامَ المجنونة في قلبه القاسي، ولكن كان أندريا هو أيضًا بطلًا بطريقته. أخذ ينسج الأحلام حول كوزيما الصغيرة، كان لا بد من مساعدتها. أرسلها لتأخذ دروسًا في اللغة الإيطالية؛ لأنها تكتب بالعامية، لدى أحد مدرسي التعليم المتوسط. زادت تلك الدروس من الشعور العدائي الغريزي الذي لدى الكاتبة الصغيرة أمام أي نوع من الدراسات المكتوبة، فيما عدا الروايات أو الشعر.

كانت الدروس الأكثر فاعلية هي تلك الدروس العملية التي يمنحها إياها أخوها الطموح بأن يعطيها فرصًا للقاء نوعيات مختلفة من الرعاة المسنين، الذين يقصون قصصًا أعظم من تلك المكتوبة في الكتب، وبأن يصحبها معه في جولاته في القرى الأكثر تميزًا في المقاطعة، وإلى المهرجانات القروية، ولترى أشجار الزيتون المتفرقة في المراعي المنعزلة والمختبئة كالأعشاش في فجوات الغابات الجبلية.

كانت إحدى تلك الجولات رائعة؛ لأنها أيضًا مع صحبة جيدة، فبالإضافة إلى أخي أنطونينو، كان يوجد أيضًا أصدقاء آخرون لأندريا، تقريبًا جميعهم طلاب لم يكملوا تعليمهم، وكانوا يفضلون نغمات الأكورديون على المعاني الملتوية في المعاجم، وعاشوا الملحمة بأنفسهم، يتصارعون فيها للفوز بقروية شابة، ثم يتصالحون في مآدب تُشوى فيها الحُملان على النيران الحية وتتراكم عظامها أسفل أقدامهم كما يحدث في مآدب الأبطال وفرسان الملك شارلز.

إحدى تلك المآدب أُعدت في إحدى حظائر الماشية للمراعي التي ورثها أندريا وكوزيما. وتلا رعاةَ الخنازير الذين أنهوا موسمهم، رعاةُ الخرفان والماعز. تَقرِض الخرفان البَرْوَق الجاف، وتتكسر أشواكه الذهبية بين أسنان الحيوانات كأنها عيدان خبز جافة، وترسم المِعاز السوداء ذات الرءوس الشيطانية ظلالها على عِرق اللؤلؤ للقمم الصخرية.

في ذلك اليوم تعلمت كوزيما أشياء أكثر مما ستتعلمه في عشَرة دروس مع أستاذ الآداب. تعلمت كيف يمكن أن تميز بين الورقة المسننة للبلوط عن تلك المدببة للسِّنديان الأخضر، وبين الوردة المُعطرة لشجرة الطقسوس ووردة اللَّبلاب. ومن إحدى القلاع الصخرية التي

تحوم حولها الصقور تجذبها الشمس مثلما تجذب المصابيح الفراشات الليلية، رأت سيفًا كبيرًا لامعًا موضوعًا في نهاية جُرف علامةً على أن الجزيرة قُطعت من القارَّة، وأنها لا بد أن تبقى كذلك إلى الأبد. كان البحر هو ما رأته كوزيما للمرة الأولى.

من المؤكد أنه كان يومًا لا يُنسى بالنسبة إليها، مثل يوم «احتفال التثبيت»،[1] عندما يشعر طفل يؤمن بقوة بأنه أقرب إلى الله، وبأنه مغسول تمامًا من خطيئته الأصلية. بدا كل شيء رائعًا بالنسبة إلى كوزيما، حتى الصُّراخ الوحشي لطيور «أبو زُرَيْق»، والأشواك الشائكة بين الصخور الحارقة، ولكن بدلًا من أن تشعر بالفخر، شعرت بأنها صغيرة وضئيلة بجانب الصخور التي تلمع كأنها مكسوة بالقشر اللامع، وأشجار السِّندِيان القديمة التي كانت تبدو أقدم من الصخور نفسها. كانت الظلال كثيفة، وإذا عبر بعض السحب السماء بدا كأنه يتشبث بأعلى قمم الأشجار لبعض الأجزاء المفتوحة في الغابة مثل طفل ينظر إلى بئر عميقة.

ولكنهم أقاموا المأدبة في منطقة مستوية، أي على أرض محاطة كلها بصفوف من جذوع الأشجار كأنه صالون ملكي، أعد أندريا لكوزيما مقعدًا مريحًا بواسطة السَّرْج وخُرْجه، وقدم إليها أفضل جزء من الطعام، فكان من نصيبها كبد الحمَل الطري والحلو كأنه تفاح السرب المختمر. وكان من نصيبها أيضًا الجزء الخارجي من الجبن الصغير المشوي على السيخ، وقُدِّم لها أيضًا أجمل حزمة من العنب المبَكِّر الذي أحضره لها أخوها الغيور.

أدرك الآخرون تلك التصرفات الفروسية، وذلك التلطف، وبدءوا يَخبِطون بعضهم بعضًا بأكواعهم، كأن هناك أمرًا ما انتقل فيما بينهم بذلك التصرف، ففي اللحظة نفسها قدَّم كل واحد منهم شوكته العجيبة تجاه كوزيما بما تحمله من لحم وخبز وجبن وكل المأكولات الموجودة في المأدبة. احمر وجهها ولم تنطق بكلمة واحدة، لم تفتح فاها قط طَوال فترة المأدبة، وكانت تبدو كالغريبة فوق ذلك السَّرْج المُغطى بالخُرج المصنوع من القماش القديم، بعينيها الواسعتين الصامتتين القاتمتين بفعل الأخضر القاتم لظلال الغابة، كأنها إحدى تلك الجنيات الصغيرات الغامضات، لا يعرف أحد إذا كُنَّ طيباتٍ أم شريرات،

[1] سر التثبيت في الكنيسة الكاثوليكية: طقس خاص بالشباب تحتفل به الكنيسة بانضمامهم إليها، وتثبيت سر المعمودية.

ويسكنَّ في مغارات الجبل، ومن آلاف السنين يَحِكْنَ الشباك الذهبية في الداخل، ليحبسْنَ فيها الصقور والرياح والسحب وأحلام البشر.

بيد أنها شعرت ببعض الضيق لأن أخاها قد عرَّضها إلى سخافة رفاقه، حتى وإن كانت محترمة ولم تلمس أيًّا من الطعام المقدم إليها. بمجرد أن أفلتت من اهتمام رفاقه التفتت إلى جانبها وقفزت من فوق السرج كأنها تجلس على حصان سباق. وعلى الفور ابتعدت مسرعة بين الأعمدة التي تحيط بالأرض المستوية، تلمسها بذراعيها المفتوحتين كأنها طائر السُّنُونُو الذي يطير منخفضًا عند اقتراب العاصفة، ويعود بعد ذلك إلى قمة الجُرف حيث يرى البحر. البحر، السر العظيم، مستنقع الأجَمات الزرقاء، وعلى الشاطئ سياج من أشجار الزُّعرُور البري المزهرة، والصحراء التي تحلم طيور السُّنُونُو بأن تطير فوقها تجاه أروع مقاطعات القارة. كم تمنت أن تمكث هناك فوق قمة الجُرف، مثل السيدة المنعزلة التي تنظر إلى الأفق، إلى شراع يظهر وعليه رموز الأمل، أو أن ترى أمير الحب يقفز على الشاطئ وهو يرتدي ألوان البحر.

أعادتها صرخات الشباب المجتمعين إلى أرض الواقع، كانت تُسمع أيضًا صَفَّارات الرعاة التي يجمعون بها قطعانهم، وكان كل صوت وكل دويٍّ يتذبذب في ذلك الصمت الرهيب بصدًى واضح، كأنهم في منزل من الكريستال. كانت الشمس تغرب من الجانب المقابل، فوق الجبال وراء السهول، واكتست عيون الماعز الذي ما زال يرعى على القمم باللون الأحمر مثل عيون الصقور. حانت ساعة العودة إلى المنزل. وعندما تتذكر أيامها وهي ما زالت طفلة عندما كانت تفرح فقط بالقصص التي تحكيها هي لنفسها، تشعر بأنها تقف بالقرب من البحر، وفوق تلك المنحدرات الحمراء بفعل الغروب، مثل تلك الماعزة التي تقف على القمة البارزة الصخرية، والتي ترغب في أن تقلد طيران الصقر، إلا أنها مع صفير الراعي لا بد لها أن تعود إلى الحظيرة.

وفي الوقت نفسه وصل إليها صفيرٌ أكثر حدة ومختلف عن الصفير الآخر، وصل إليها كالسهم يتبعه صفير آخرين كانوا يقلدونه مستهزئين. كان أندريا يناديها محذرًا إياها — باعتباره مسئولًا عنها — ألا تستغل تدليله لها. وذكَّرتْها سخريةُ رفاقه بوضوح بأن قوانين المجتمع المقدَّر لها أن تعيش فيه لن تتسامح مع تمردها سوى مرة واحدة. عندئذٍ نهضت، ولكنها هزت من جديد ذراعيها تجاه البحر، كأنها تحاول لمس الأمواج، كما لمست منذ قليل أعمدة الساحة، وهي طائر السُّنُونُو المهاجر خلف الشتاء الدافئ والجاف للهضاب الليبية تجاه الأراضي المشمسة وأمسيات الغسق الحمراء الصيفية، وتجاه الحب الذي وحده يمنح عطية الأبدية.

من وقتها لم يفارقها هذا الحُلم. عندما كانت في ليالي الشتاء بجوار المِدفأة أو أسفل ضوء المصباحين الزيتيين (وأحيانًا كانت توقد ثلاثة) أو في صباحات الربيع في الحديقة الصغيرة المليئة بالورود التي يطِن فيها الذباب ثم في الصيف في حجرة الدَّور العلوي أمام مشهد الجبال النائمة الذي تراه من النافذة، كان يمكنها أن تمسك بيديها مَجلة مصورة، وكانت تدرس فيها طويلًا الوجوه، وخاصة الصور الفوتوغرافية للطرقات والآثار، وقصور المدن العظيمة. فروما هي هدفها، وكانت تشعر بذلك. لم تكُن تعرف بعدُ كيف سيمكنها الذَّهاب إلى هناك، لم يكُن هناك أيُّ أمل ولا أية احتمالية ولا وهم بزيجةٍ ما يمكنها أن تقودها إلى هناك، غير أنها تشعر بأنها ستصل إليها. ولم تكُن أهدافها دنيوية، فهي لم تكُن تفكر في روما لروعتها، ولكنها بالنسبة إليها مثل الأرض المقدسة، أورشليم الفن، المكان الذي يكون المرء فيه أكثر قربًا من الرب ومن المجد.

كيف كانت تصلها الصحف المصورة؟ لا أحد يعلم، ربما سانتوس أو ربما كان أندريا هو من جلبها لها آنذاك، فقد ظهر في العاصمة، بعد أن لحق بالناشر الأرستقراطي سوماروجا، ناشر من الطبقة العاملة يعمل في مطبعة، وكانت لديه منشورات جيدة ضمن العديد من تلك السيئة، واستطاع أيضًا أن يجيد تسويقها لتصل إلى أبعد المدن في شبه الجزيرة، حتى إنها وصلت إلى حيث يوجد منزل كوزيما. كانت توجد صحف للأطفال مليئة بالحيوية ومَجلات بها صور جيدة، وصحف للمتنوعات والصيحات. من المؤكد أن مَجلة «آخر موضة»، بما تحتويه من صور لسيدات بتسريحات الشعر المرتفعة المنتفخة والخصور الرفيعة والتَّنُّورات المقوسة والمظلات ذات الدانتيل مثل أغطية القربان المقدس، والمراوح الريش الشبيهة بمراوح السلطان، كلها أشياء تبعث على الفرح والعذاب وفساد الصبايا. في الصفحات الأخيرة كانت توجد دائمًا القصص القصيرة مكتوبةً بطريقة جيدة، وغالبًا موقَّعةً باسم كاتب كبير. ليس هذا فقط، ولكن مدير الصحيفة، كان رجلًا ذواقًا، شاعرًا وأديبًا مشهورًا جدًّا في تلك الفترة. كان من الفرقة التي نجت من غرق الناشر سوماروجا، ولجأ جزء منها في قارب الناشر بيرينو.

لذلك خطر في ذهن كوزيما الساذج، ولكن الجريء، أن ترسل قصة قصيرة إلى مَجلة الموضة، مع خطاب قصير مليء بالحقائق اللطيفة عن نفسها؛ على سبيل المثال، صورة ملخصة لحياتها ولبيئتها ولتطلعاتها، وفوق كل شيء صحِبتها وعودٌ قوية وجَسورٌ عن مستقبلها الأدبي، وربما أكثر من القطعة الأدبية التي تحكي عن فتاة تقريبًا تشبهها. كانت هذه أولى الرسائل التي فتحت لها قلب الشاعر الطيب، رئيس العالم النسائي الذي

خلقته صحيفته الخاصة بآخر الصيحات، ومع قلبه فُتحت لها أيضًا أبواب الشهرة. شهرة مثل الميدالية الجميلة التي على وجهها الآخر صورة الصليب المؤلم، لأن مدير «آخر موضة» عندما نشر القصة القصيرة قدَّم إلى عالم الفن، بدفعة نبيلة، الكاتبة الصغيرة، ودعاها على الفور لأن ترسل له أعمالًا أخرى. وفي البلدة انتشر الخبر بأن اسمها قد ظهر مطبوعًا أسفل عمودين من النثر الساذج بالعامية، وأنهما — مما يَزيد الأمر فداحة — يتناولان مغامرات خطيرة، مما أثار ضدها ازدراءً عامًّا بلا رحمة.

وها هما هاتان الخالتان العانستان العجوزان اللتان لا تعرفان القراءة وتحرقان الأوراق التي تحتوي على صور الخُطاة والنساء الملعونات، تهرعان إلى المنزل الملعون لينشرا رعب نقدهما وأسوأ النبوءات. حتى إن أندريا نفسه اهتز واكتست أحلامه الخاصة بمستقبل كوزيما بمخاوف غامضة، وبكل الطرق نصح أخته أن تتوقف عن كتابة قصص الحب، لأنها في سنها هذه ستكون قليلة الخبرة في هذا الأمر، بالإضافة إلى ما ستشيعه عنها باعتبارها فتاةً منحلة وفاسدة بالفعل، لن تكون واقعية على الإطلاق.

الفصل السادس

كان الصيف بالتأكيد من أجمل الفصول، وبصفة خاصة بالنسبة إلى كوزيما. كان الجو حارًّا جدًّا في بعض الأيام، ولكنها حرارة جافة، وفي الليل تهدأ في اعتدال رائع. عندئذ تصل من الأودية ومن الحقول التي حُصدت روائح الزرع، وعطور الشجيرات، يتردد صدى أصوات النساء القابعات في الطريق للاستمتاع بالهواء البارد في تناغم موسيقي عميق. كانت الأمسيات طويلة حمراء وزرقاء رَمادية وبَنفسَجية فوق الجبل، وإذا برز القمر فوق الصخور ينصهر ضوءُه مع ضوء نهاية اليوم، في حمرة غروب شبه شرقي.

ثم إنه الفصل الذي فيه يعود أنطونينو في عطلته. تنتظر كوزيما هذه العودة، مثلما ينتظر الآخرون الربيع أو نهاية اليوم. ثم إنه في ذلك يختلط مع انتظارها خوف مبهم، خوف من أن يكون أنطونينو قد عرَف بالخبر العظيم، بأنها هي أيضًا قد أصبحت كاتبة، مُقدر لها المجد، وأن يبتسم لهذا بابتسامته الساخرة المميزة لعائلته، ولكن التي يظللها في حالته، حزن راقٍ، مثل تلك التي للكبار، بل التي بالفعل للكبار والأقوياء تجاه الصغار والضعفاء. في أعماقها لم تكُن تهتم كثيرًا، بل كانت ثابتة في ثقتها غير المحدودة بأنها ليست بحاجة لأي قوًى مختلفة عن قواها الشخصية لتسير قدمًا في الطريق الذي مهده أمامها الرب نفسه. ولم تكُن تأمل شيئًا من أنطونينو. ليس هذا فقط، ولكنها لم تكُن تريد أي شيء، ولا حتى أن يشك في حبها له. حب! أخيرًا أزهرت الكلمة في قلبها، وفوق كل شيء في ضميرها، منذ ذلك اليوم فوق الصخور، كما تُزهر الوردة الحمراء المعطرة التي تكفي لتضيء حديقة بائسة.

بيد أن جسد أنطونينو لم يكُن له وجود بالنسبة إليها، ولم تكُن تسري في أوصالها أمنية بعيدة، ولا حتى بالغريزة، بأن تنال قبلة واحدة منه. لم تكُن تعرف منه سوى هيئته، وكانت بالنسبة إليها تقريبًا ذات لون سماوي، لأنه كان يرتدي في أغلب الأحيان

التُّركُواز الفاتح الذي يغلفه الوميض من بعيد، تظهر لها حتى وإن كان يبرز فقط من نهاية الطريق الوحيد. كان لا بد أن يعبر ذلك الطريق لينزل إلى منزله في وسط البلدة، وتعرف ذلك وتنتظره أمام النافذة، ولكن بمجرد أن يظهر، تختبئ هي.

ولكن في تلك المرة رأته في ضوء مختلف، في خلفية رائعة. ذهبت مع أختها بينا لزيارة بعض الصديقات أقارب أنطونينو. اصطحبتهما الخادمة وسلمتهما للسيدة لوتشيا على وعد بأنها ستأتي لتأخذهما في المساء. كان الوقت قصيرًا، ولكنه كان كالعيد بالنسبة إلى كوزيما التي يمكنها أن تتنفس هواء البهو، ومزارع كَرْم أنطونينو. وكما قيل، كانت منازل العائلات الأربع تُفتح جميعها على ذلك البهو المتسع، متجدد الهواء، المُبلط جيدًا بمقاعد من الجرانيت مُلصقة بالحوائط المجاورة للأبواب. منزل السيدة لوتشيا مكون من طابق واحد، ولكن حجراته مريحة، يوجد أيضًا الصالون بمائدة مستديرة في وسطه، وأريكة ذات غطاء من الكروشيه المزين بشرائط على ظهره. اجتمعت الفتيات وبدأن في الثرثرة. صديقتا كوزيما وبينا هما أيضًا صغيرتا القامة، قمحيتا الوجه، ذكيتان وسليطتا اللسان. وبعد الانتهاء من التحدث بسوء عن معارفهن المشترَكين، بدأ بعضهن في استفزاز بعض، بخبث وسخرية. كانت الفتاتان «م» ترتديان ملابسَ أنيقة؛ لأن أباهما موظف في المحكمة، وأيضًا لديه أخت في ساساري، حيث تذهب الفتاتان لتقضيا بعض الأسابيع وتتعلما الأناقة المدنية. كان موضوع سخريتهما الثوبين غير المناسبين للفتاتين الأخريين، اللذَين حاكتهما لهما خياطة قروية. ثوب كوزيما أصفر اللون بزخارف حمراء تبدو مضحكة، وبالفعل تبرز أكثر وجهها الشاحب وشعرها الأسود الكثيف.

قالت لها الصديقة لينيدًّا: تَبدِين ككَرَزة بدأت في النضوج.

اكتسى وجه كوزيما بالأحمر وصمتت، ولكن أختها بينا، وهي تحدِّق في الفستان الأخضر للأخرى، ردت: وأنت تَبدِين كحيَّة.

ضحكت الأخرى وقالت: لم أكن أتذكر أنهم قطعوا لكِ خيط لسانك.

في الواقع كان الأمر حقيقيًّا، وهي صغيرة كانت تتلعثم؛ لأن الغضروف أسفل لسانها كان قصيرًا جدًّا وكان لا بد من قصه، وهو شيء سيظل الآخرون يُذكِّرونها به حتى نهاية حياتها.

– بالنسبة إليكِ لم يكُن يلزم قطع خيط اللسان، بل كان لا بد من حياكته.

ضحكت الفتيات، لأنهن في أعماقهن كن سعيدات، وكن يشعرن بالتسلية من خبثهن. قُدمت لهن القهوة، وتحولن للكلام بسوء عن ابنتي عمهما، أختَي أنطونينو بينما تتجسسان

من النوافذ المقابلة، ولكنهما لا تتنازلان بالمجيء ومصافحة الصديقتين البرجوازيتين. كانتا ترتديان ثيابًا قروية بالفعل، ولكنها كانت من النوع الثمين، وكانت أمهما تقول بكل اقتناع: لا بد وأن ترتبط بنتاي برجلين في مناصب عليا، مهيبة وقوية.

بيد أن ابنتها الكبرى بعد ذلك بعدة أعوام تزوجت بفلاح يملك أرضًا، والصغرى تزوجت بتاجر ثري.

في ذلك اليوم لم تنضما لصحبة فتياتنا، ولا حتى عندما خرجت الصديقات الأربع إلى الكَرْم الملحق بالمنزل، في وقت الغروب. كان المكان رائع الجمال، مكان معلقًا فوق الوادي، ويطل على الجبال التي اكتست بحمرة شمس الغروب، حيث يوجد سور صغير يفصله عن الطريق الذي يمتد ليتلاشى تجاه المنحدرات نحو الوادي الآخر شمالًا. وعلى هذا السور الصغير، وفي خلفيته الشمس المتوهجة كنصل ذهبي، يجلس أنطونينو الرشيق، وهو يمسك صحيفة في يده.

عندما رأته كوزيما من آخر الطريق الصغير للكَرْم انحنت للأمام كأنها على وشك السقوط، وهي تغلق عينيها ببؤس. لم تكُن تعرف أنه عاد، كما لم تكُن تعرف ابنتا عمه أيضًا هذا، اللتان أخذتا تنظران إليه بفضول غير عادي، ثم جرَتا نحوه دون أن تصافحاه لتضربا بقبضتيهما على ركبتيه. أبعدهما هو قلقًا فقط على ثَنْية سرواله، ولم يتوقف حتى عن القراءة إلا عندما أدرك وجود الفتاتين الأخريين. وجد صعوبة في تذكرهما، ولكن عندما تعرف على كوزيما، نهض على قدميه وصافحها بتلك الابتسامة العذبة المتعبة والساخرة التي ترفع شفته لتكشف عن أسنانه اللامعة. بدا كل شيء فيه في تلك اللحظة لامعًا، وبدا الضوء الذهبي للغروب كأنه ينبعث من عينيه، ومن وجهه القمحي، ومن شعره الأنيق. طَوال حياتها ستتذكره كوزيما بهذه الطريقة، ويكفي فقط أن تفكر فيه لتشعر بتلك الفرحة الغامضة، المكونة من الضوء والتوتر، كما يشعر المرء أمام أول كشف للحياة الواعية، حتى وإن ابتسمت صورة الحياة كما كان يبتسم أنطونينو في تلك اللحظة. ولكن في عمق مخيلتها، ستبقى هذه الذكرى أولى خبراتها الفنية، وكانت تنتظر بفخر أن يشير الشاب إلى قصتها القصيرة، مستعدة لأن تدافع عن نفسها إذا سخر منها. ولكن بدا أنه لا يعرف أي شيء، أو على الأقل لم يشر إلى أي شيء. سأل فقط عن سانتوس، وقال إنه سيذهب لزيارته. احمر وجه كوزيما، أدرك هو ذلك ولم يُصر. ثم لأن الفتاتين الصغيرتين كانتا قد ابتعدتا، ومكثت الكبيرتان بجوار السور الصغير، وبدأت لينيدا في إغاظة أنطونينو، وسمحت لنفسها بأن تهزأ من طريقته في ارتداء ملابسه، وأيضًا لأن شعره يلمع بشدة.

– هل وضعت زيتًا على شعرك مثل نساء «أوليينا»؟ من تريد أن تَلفِت نظرها في بلدة المتوحشين تلك؟ هنا، لا توجد سيدات رفيعات المقام.

أخفضت كوزيما عينيها. كان أملُها في أن يرد على ابنة عمه في ذلك الموضوع الشائك، يتسبب في تسارع دقات قلبها، ولكنه لم يُعِر اهتمامًا لابنة عمه لينيدًّا كأنها مثل صخور الحائط الذي يستند إليه، ولكنه مرر يده البيضاء وأظافره التي تعكس اللون الذهبي للغروب على شعره المقسوم من الجانب بخط رفيع ناصع البياض، وأخذ يبعثره كأنه يثبت أنه لا يلمع بطريقة اصطناعية.

– ثم، لماذا لا ترتدي الصديري؟ هل فقدته، وقميصك يبدو كقميص امرأة.

كانت كوزيما ملتزمة الصمت، يعتريها الخجل والإهانة لأجله، وشعرت بفرحة شريرة عندما مد الجريدة وضرب بها أكثر من مرة فوق رأس ابنة عمه الصغيرة، سليطة اللسان، ولكن لم يكُن هذا كلَّ شيء، لأن لينيدًّا بقفزة صغيرة سريعة حاولت أن تشد شعره، وأمسك هو بذراعها وجعلها تلف حول نفسها كأنها غطاء زجاجة، ثم دفعها مجبِرًا إياها على النزول هرولة في منحدر الوادي الصغير. كانت هي تصرخ كأنها أبو زُرَيق، ولم يكُن هو يضحك، بل على العكس كان يجُز بقسوة على أسنانه، واستمر في التلويح بالصحيفة كأنه يشعر بحر شديد. تقف كوزيما في المكان، وتكاد تفقد وعيها، متمنية ألا تكون حاضرة في ذلك المشهد؛ فقد تشوه معبودها بطريقة ما، بيد أنها كانت ستشعر بسعادة رهيبة إذا تعامل معها بالطريقة نفسها التي تعامل بها مع ابنة عمه.

ولكنه على العكس، أظهر لها على الرغم من ضيقه أقصى احترام. ليس هذا فقط، ولكن وصلها انطباعٌ أن الدرس الذي منحه للينيدًّا كان إكرامًا لها، حتى لا يصغر في نظرها. على كل حال، تنفست هي الصُّعَداء عندما انصرف، بعد أن حياها بإيماءة خفيفة برأسه، ودون أن يلتفت لصرخات ابنة عمه.

ولكن سيكون عليها مقابلته مرة أخرى في ظروف أكثر سعادة، غير متوقعة، وتشبه الحواديت. فوق المدينة الصغيرة، التي كانت على ارتفاع ستمائة متر من مستوى المياه، وعلى قمة جبل أورتوبيني،[١] التي تقع بين غابات البلوط الأخضر وصخور الجرانيت، بالقرب من أملاك عائلة كوزيما، من حيث رأت للمرة الأولى البحر البعيد، كانت تبرز كنيسة صغيرة تُدعى كنيسة «عذراء الجبل»، على سفح تحيط به الصخور. توجد حجرات

[١] Monte Ortobene: أحد جبال سردينيا ومن المعالم السياحية فيها.

صغيرة مُلحقة بالكنيسة، وتشترك في السقف نفسه، شيء يشبه الرواق يُفتح أمام البابين، واحد على الجنوب والآخر على الغرب، بمقاعد حجرية موضوعة في كل مكان حوله. يمكث المؤمنون في تلك الحجرات في أثناء فترة التساعية[٢] وعيد العذراء الصغيرة. تحكي الأسطورة أن أسقفًا، ربما من بيزا، في أثناء سفره في زيارة رعوية للجزيرة، تعرض لعاصفة، ووعد، إذا لم يغرَق قاربه، بأن يبني مزارًا على أول قمة جبلية تظهر في الأفق. وعلى الفور هدأ البحر، وظهرت قمة صخرية بين السحب فوق الجزيرة. كان خال كوزيما ذلك الكاهن المُدخن إينياتزيو، الذي يرتدي شعرًا مستعارًا أحمر اللون على جزء أصلع، يعمل راعيًا لتلك الكنيسة الصغيرة. تصحبه أخته باولينا، وكانت لديهم من أجل استعمالهم الخاص، بالإضافة إلى غرفة المقدسات، حيث تخفي العمة باولينا في إحدى خزاناتها الحلوى لتبعدها عن شراهة الأولاد، غرفة صغيرة نظيفة للكاهن، بها فراش ومرتبة، وغرفة واسعة غير مفروشة بها أرضية والعديد من الأوتاد على الجدار لتعليق الملابس.

قضت كوزيما، ذلك العام، أجمل أيام حياتها، في هذه البيئة البُدائية المليئة بالأكواخ والمغارات، ويدخلها الضوء فقط من الباب الصغير المفتوح على الغابة؛ لأن العمة باولينا دعتها مع أختيها لتقضيا معها فترة التساعية. كانت مثل حلم جميل متكامل ومليء بالغموض مثل الأحلام الحقيقية.

تبلغ الرحلة حَوالَي ساعتين من الصعود عبر طريق صغير يكاد يُرى بين المنحدرات والأجواف والأشجار، عبورًا على الأقدام، وكانت الفتيات فرحات بجنون وثَمِلات بذلك الصباح البديع لشهر أغسطس، بينما تتبعهن عربة تجرها الثيران وتملؤها الأدوات المنزلية والمؤن، وكانت تتبعهن مترنحةً بين الصخور والنباتات الشائكة. كانت الوقفة الأولى القصيرة التي وقفنها ليس من التعب، ولكن من أجل التسلية، كانت في بداية الغابة الكثيفة أسفل حَجَرة غريبة مستندة إلى حجارة أخرى، ويُطلق عليها «مقبرة العملاق»، تبدو كتابوت ضخم من الجرانيت مغطًّى بستار من الطحالب، وكصرح مهيب في وحدة المكان الممتدة. في زمنٍ ما، كما تقول الأسطورة، كان العمالقة يسكنون الجبل، وواحد منهم حسب دوره يحرس مدخل الغابة، واستلقى ليموت على حجر الحدود الذي أُغلق عليه، وما زال يحرس جسده. كان ذلك حقًّا هو المدخل إلى عالم الأبطال والأقوياء، عالم أولئك الذين لا يمكنهم

[٢] أو التسعاوية: هي فترة صلاة لمدة تسعة أيام تقام لطلب نعمة ما من العذراء أو من أحد القديسين.

التفكير في أفكار مثيرة للشفقة. ولمست كوزيما الحجر، كما يلمس الشخص الحجر في أماكن أخرى غزتها الأساطير المقدسة، الذي أسفله يرقد قديسٌ ما.

استنار حلم طفولتها المرتبك بالفعل برغبة ما، بالإضافة إلى النقاء والأشياء العظيمة التي تتجاوز الصعوبات اليومية، وكان يبدو لها بالفعل وهي تعاود صعود ذلك الطريق الأملس بنبات كُزْبَرة البئر والأعشاب الجبلية الرقيقة جدًّا الأخرى، بين السراخس والمنحدرات، وفي ظلال أشجار البلوط الخضراء الضخمة، بأنها قد هربت من عالمها الصغير لتجد نفسها بجوار العمالقة الذين يلمسون السماء، ويصاحبون الرياح والشمس والمَجرات الأخرى.

وقفة أخرى كانت بجوار نبع المياه الصافية المضيء كالماس، تندفع المياه من صخرة مجوفة وتنتشر بتحفظ، بل تقريبًا خِلسة، بين الأعشاب المرتعشة والموحلة، في دائرة من شجر البلوط الأخضر، هنا وهناك، متعلقة على القمم الزرقاء. كانت تسمع بالفعل صرخات أبو الزُّرَيق، وبدا الهواء كأنه مشروب معطر بالنَّعناع.

كانت الفتيات ينحنين على الصخرة، ويتظاهرن بأنهن يشربن من النبع، وفي المرآة الصغيرة المصنوعة من العقيق للمياه في الظلال رأت كوزيما عينيها اللتين بدتا لها من الضوء المعجزي نفسه ضوءًا ينبع من عمق أرضها، الذي في يومٍ ما عكس أرواح أجدادها من الرعاة والشعراء العطشى للسمو.

بيد أن الواقع يتكون من المسكن الذي كان يقبع مثل كوخ محفور بين الصخور للأجداد أنفسهم، منتظرًا تلك القبيلة الجديدة من الفتيات اللاتي يتطلعن إلى مساحة في العالم البعيد؛ إلى المدن المزدحمة والصاخبة. وتمردت أختا كوزيما منذ البداية عندما رأتا أن مكان النوم المشترك مع العمة باولينا مفروش على الأرض ومصنوع من طبقة من الحشائش والأغطية، والوسادات ومُلاءات كبيرة، وأن الخِزانات مجرد أوتاد. وللاغتسال توجد زاوية على مقعد حجري بجوار إبريق ماء الشرب، وقِنِّينة من الخزف. ولإظهار التمرد، وللتسلية أيضًا، بدأتا في التدحرج على الفراش. وعندما عثرتا على الشعر المستعار للعم إينياتزيو، أفسدتاه تمامًا. ثم ذهبتا إلى الغابات لتستمتعا بجلال المكان العظيم المليء بالدروب، والأرائك التي تغطيها الطحالب، واللوحات والزخارف رائعة الجمال الثرية بخلفيات طبيعية لم تريا مثلها قط.

كوزيما، فقط، لم تشعر بالإحباط، بل إن المكان برائحة الرطوبة والحشائش، وبأثاثه البُدائي، مع الباب الصغير المغطى بستار اللون الأخضر الداكن للغابة، وتلك المقاعد الخشنة

من الحجر، والآنية الفَخَّارية، والصحون الريفية المصنوعة من الفلين والقرن، كانت جميعها تمنحها شعورًا غريبًا بذكريات قديمة، مثل تلك التي اعتادت أن تشعر بها في طفولتها غير الواعية عندما تظهر جدتها الصغيرة لأمها. تلك الجدة التي تشارك طبيعة الجِنيات القَزَمات في التراث المحلي، وكنَّ يسكنَّ في منازل صغيرة من الجرانيت وسط الجبال، وعلى المرتفعات الصخرية. وقبل أن تلحق بأختيها أخذت تعمل لتجعل المسكن البُدائي صالحًا أكثر للعيش فيه. بدأت بتعليق الملابس القليلة التي أحضرتها هي وأختاها فوق الأوتاد الخشبية، وتغطيتها بشال لتحفظها من الأتربة وفضول الأغراب. وضعت أمام الفراش من الجهة التي سينمن عليها بعض البُسط وجوالًا طويلًا من الصوف سميكًا قليلًا. وضعت أحذيتهن في سلة. وفي النهاية، صنعت تسريحة صغيرة بواسطة مرآة صغيرة ورفٍّ. أحسنت التدبير بالدرجة الكافية لتحضرهما معها.

في ذلك الوقت، كان في الخارج خادم العمة باولينا يبني كوخًا من الأغصان لا بد أنه سيُستخدم مطبخًا، حيث أحضروا معهم فرنًا يدويًّا وجوالًا من الفحم. ولكن الخادمة أرادت نوعًا من الأفران الحجرية وأعلنت أنها ستطهو بنيران الخشب. ولم يكُن الخشب ينقص في المكان، وكان في متناول اليد، والحطب جاهز ليتقد كالمشاعل. أحضروا على العربة أيضًا بعض المقاعد ومائدة، وكانت المائدة ستُستخدم في أثناء الوجبات، ومكتبًا للكاهن إينياتزيو، ولكنه لم يكُن ينوي أن يأخذ دقيقة واحدة ليمسك فيها قلمًا، وهكذا وُضعت المائدة في الحجرة الكبيرة بجوار ضوء الباب واستُخدمت للوجبات، وأيضًا مكتبًا لكوزيما؛ فقد أحضرت معها المحبرة، ملفوفة في نسيج أسود، وأدخلتها في أحد الأحذية حتى لا تنقلب في أثناء الرحلة. ووجدت أيضًا في ذلك السكن البُدائي شيئًا يشبه المشكاة حيث ستضع مصباحًا، وبعض الصور المقدسة وستضع فيه أيضًا المحبرة والريشة وأوراقها وبعض الكتب، فصنعت بذلك هيكلًا صغيرًا لأدواتها الفنية.

ثم لحقت بأختيها في الغابة، وكانت ساعاتٍ ثم أيامًا من الفرح الغامر. ألم يكُن كل هذا حُلمًا؟ أحد تلك الأحلام التي تكفي لتنير الحياة أيضًا في زواياها الأكثر ظلامًا، مثلما تنير الشمس ومعها القمر، في تلك الأيام الممتعة لشهر أغسطس، غابات البلوط الأخضر حول تلك الكنيسة الصغيرة الرائعة. ماذا يهم إذن من البساطة وخشونة حال الكوخ؟ كان يخدمهم فقط باعتباره ملجأً في الليل، وبالنسبة إلى كوزيما في الأوقات التي تكتب فيها، وكانت همسات الغابة تغطيها كأنها أصوات أُرغُن، ويغطيها القمر بنسيجه الفضي. وكانت الفتيات ينمن على هدهدة تلك الموسيقى التي لم يكُن لها مثيل، لأنها موسيقى الطفولة، التي تُسمع فقط مرة واحدة في الحياة.

ولكن بالنسبة إلى كوزيما كان شيئًا أعظم وأكثر سموًّا. كانت كلها شبكة من الغموض، نوعًا من التتابع لأشياء مدهشة، كأنها كانت تغوص في عمق المحيط، تحيط بها، ليس الغابة البرية من البلوط والصخور الرائعة، ولكن كل روائع الغابات الواقعة في أعماق البحار.

كان كل هذا بالإضافة إلى العذوبة الحقيقية لإقامة مؤيدة بالحرية وبمساحة المكان، بجمال المناظر الطبيعية، والابتعاد، وطرق التسلية البسيطة لمجموعة صغيرة من الناس الساكنين حول الكنيسة التي كانت تعتمد في وجودها على واحدة من الحجرات في الجهة المقابلة للجزء الخاص بالراعي التي تملكها عائلة أنطونينو. لم يكُن موجودًا، ولكن لا بد أن يأتي بعض الأيام أيضًا، مثل كل شباب المدينة، الذين حتى إذا كانت عائلتهم غير موجودة في أعلى كانوا يقومون برحلات ويتجولون أيضًا في الليل في ذلك المكان الساحر، وهم يشعلون النيران الضخمة، ويجهزون حفلات عشاء وحفلات راقصة، ويعسكرون في العراء أسفل الأشجار ويغازلون الصبايا. كان لا بد أن يذهب، والأمل الوحيد في رؤيته حتى ولو سريعًا، في تلك الخلفية التي بدت بالنسبة إليها خلفية الشعر نفسها، وهذا الأمل يملأ كوزيما بفرح بلا حدود.

ولكنها لم تذهب قط إلى الجزء الذي تسكن فيه عائلته، وأخذت تتهرب من أختيه خشية أن يخمنا السر ويسخرا منها، أو ببساطة لأن سرَّها بالنسبة إليها عظيم ومقدس مثل «خيمة الاجتماع»[٣] التي يجب ألا يدنسها أحد. وإذ به يحضر في أحد الأيام، بمفرده، سيرًا على الأقدام، ممسكًا بفرع شجرة في يد وفي اليد الأخرى قبعته المصنوعة من الخوص، ورأته كوزيما، التي تراقب دائمًا الطريق من أعلى صخرة. يصعد متعبًا إلى حد ما، وهو يضرب الأشجار بالغصن، بدا تعيسًا، غير مندهش، وفكرَتْ أن هذا المكان بالتأكيد، على الرغم من جمال طبيعته، ليس كافيًا له، فهو يريد المتنزهات متسعة الأرجاء ذات الطرقات الواسعة الناعمة كالقطيفة، وسلالم وشرفات ظِلل الأمراء، والنوافير والمغارات الصناعية لحدائق القرن الثامن عشر التي أعجبتها هي أيضًا عندما رأتها في المَجلات المصورة. وشعرت، تقريبًا، بالشفقة عليه، وقررت أن تختبئ حتى لا تَزيد من المزاج السيئ الذي يجتاحه. بيد أن مجرد الفكرة بأنه هنا، في ذلك المكان البسيط، حيث تقدم له أختاه القهوة، ينير أكثر

[٣] بحسب المعتقد اليهودي هي الخيمة التي طلب الله من موسى أن يقيمها في أثناء وجود شعب إسرائيل في الصحراء ليتقابل الله فيها مع شعبه. فهي مكان مقدس، وله طقوس خاصة، يطول شرحها في التوراة.

— إذا كان ذلك ممكنًا — المنظر حولها، وكانت أشجار البلوط التي لمسها تتلألأ كأنها أشجار نخيل ذهبية، وأصبحت السماء أكثر اتساعًا وزرقة.

كانت لحظات الطفولة الساحرة تلك، تمنح عند تذكرها فكرة لذلك الذي لا بد سيكونه يومًا ما ملكوت الله على الأرض، بالنسبة إلى النفس التي تؤمن بوجود تعويض ما عن كل إحباطات الحياة.

الآن عادت كوزيما من جديد إلى المنزل الحزين، حيث كل شيء، بعد العودة من الجبل، قد اتخذ مظهرًا أكثر بؤسًا، ويكاد يكون متدهورًا، أو بدقة أكثر، اللون الرطب للخريف، والرائحة الجنائزية لزهرة الأقحوان. كانت تشعر بالبرد في الحجرة الأخرى التي نافذتها تطل على الجبل، المغطى بدوره بالضباب، ويعلن صُراخ الغربان عن اقتراب الشتاء. ولكن ما زالت توجد، بالنسبة إليها، لحظات تعود فيها السماء لتتفتح، وتدفئ لها حرارة الربيع دماءها. تكتب وهي منحنية على دفترها، عندما تعتني أختاها بأمها، ويكون أندريا في الخارج في الريف، وسانتوس ينام نومه العميق البشع المعتاد، تنطلق في عالم خيالها، تكتب وتكتب بدافع من احتياج جسدي، مثلما تفعل مراهقات أخريات عندما يَجرِين في ممرات الحدائق، أو يذهبن إلى مكان ممنوع عنهن، إذا استطعن، في لقاء عاطفي.

تذهب هي أيضًا في كتاباتها إلى لقاءات عاطفية، إنها قصة، قصتها، حيث البطلة، هي نفسها، العالم هو عالمها، ودماء الشخصيات، وبراءتهم، وجنونهم الساذج، هي لها. وعنوان الكتاب لا يمكن ألا يكون سوى ما هو عليه: وردة البرية.[٤] وفي أحد الأيام، عندما انتهت، شعرت بنبضات تتصارع بين يديها الباردتين، كطائر يرتعش في أثناء هروبه من بين أصابعها ليضرب جناحيه في زجاج النافذة المفتوحة.

لم تتردد في البحث عن طريقة لتحريره، تاركةً إياه ليطير بعيدًا إلى أفق لا نهائي. كتبت لناشر مَجلة الموضة، الرجل ذي الذكاء الغريزي والقلب الكبير، قلب عامل قريب من الناس الذين يعملون معه. أجابها بأن ترسل له المخطوطة.

انفصلت كوزيما بألم وفخر عن عائلة شخصياتها، وأرسلتها للعالم المتسع. لفَّت المخطوطة بعناية في كتان وورق، وشبكة من الخيط، لا بد أن تقاوم الرحلة الطويلة بين الأرض والبحر، وأرسلتها أيضًا بخدمة البريد الخاصة. وهي نفقات لم تكُن كوزيما تستطيع أن توفيها بالمصروف الصغير المكون من سنتات قليلة تأخذها من والدتها كل

[٤] الاسم الحقيقي الذي نُشرت به رواية جراتسيا ديليدا كان Fior di Sardegna.

يوم أحد، ولكن نظرًا إلى أهمية المضي قدمًا بأي ثمن، ها هي ذي الكاتبة والشاعرة ومبدعة القصص القصيرة تنزل إلى المخزن وتسرق لترًا من الزيت. كان أمرًا سهلًا على تلك اللصة الصغيرة؛ لأنها وأختيها، عندما تكون الأم والخادمة مشغولتين في المطبخ، وتأتي بعض النساء لابتياع الزيت أو النبيذ، لم تكُن لديهن مشكلة في خدمتهن. وصلت إذن السيدة التي تعمل في خدمة عائلة مستشار المحكمة الذي يسكن منذ بضعة أيام في منزل العمة باولينا، في نهاية الشارع، واشترت قارورة زيت. تلقت كوزيما المبلغ المكون من بضع قطع نقدية من الفضة كل واحدة منها نصف ليرة، وأمسكت لفترة طويلة، بعد أن رحلت السيدة، بتلك العملات البيضاء في قبضتها، حتى سَخنَت. كانت تشعر بالشك وبالخوف وببعض الخجل أيضًا، ثم بعد ذلك فكرَتْ في أن أحد أعضاء الأسرة لا يتردد في أن ينفق نصف إيجار الغابة وأرباح اللَّوز، ببذخ على المقامرة وعلى النساء، وقسمت هي أيضًا النقود، فتركت نصفها للمنزل والنصف الآخر للمجد. في الواقع إنها اعترفت بعد ذلك بخطيئتها لأبٍّ اعترافها، وقالت إنها سرقت، ولكن دون أن تذكر له الدافع، ولِتعاقبَ نفسها صامَت يومي الجمعة والسبت.

وسرعان ما وصلت مسَوَّدات الرواية من المطبعة. لم تكُن كوزيما تعرف بالتحديد بِمَ يتعلق هذا الأمر، وظنت أن الناشر قد أرسل لها عينة، وتعجبت من أن الصفحات طويلة مثل أعمدة الطبعة في الصحف. احتفظت بها، وشعرت بالغرابة والدهشة للتغيير الذي حدث في عملها. كان اسمها في القمة فوق عنوان الرواية، مما جعلها تشعر بأنها مُعرضة إلى حد كبير لفضول القراء.

عندما لم تُعِد المسَوَّدات، كتب لها الناشر خطابًا يعبر فيه عن ضيقه ويطلب منها مرة أخرى أن تعيدها بعد التصحيح. عندئذٍ قررت كوزيما أن تصحح الأخطاء الإملائية العديدة، وشعرت بأول عذاب لها بأن تبحث عن الحروف المزدوِجة في القاموس المتهالك لأبيها الذي كان ما يزال يحمل عبق وبقع التبغ، ولكن صحَّحَت هي بطريقة جديدة، لم يرَها أحد من قبل، أي ليس على هامش الورقة، ولكن على الكلمة نفسها، مما أدى أن ظهور شكل من أشكال الخربشة، نوع من الفوضى التي أفزعت عامل المطبعة الذي كان عليه فك طلاسمه. قرر الناشر إذن ألا يرسل المسَوَّدات الأخيرة للكاتبة، ولكنه طلب منها صورة شخصية ليضعها في بداية الرواية.

كانت لدى كوزيما صورة شخصية واحدة فقط، وكانت هي أيضًا أحد إحباطاتها الشخصية. كانت ترغب في أن تأخذ صورة وشعرها مُنسدل، وبالثوب البَنفسَجي الجديد،

الذي يرمز لشبه الحِداد، وهي ترتدي قلادة فِضية على عنقها، نتج عن ذلك صورة كئيبة، قلقة، بعينين برِّيَّتين وفم متهكم، وصدر متخشب. كان التشوه الأول لشخصيتها الرُّوحية التي خلف المرارة الجسدية للمراهقة. كانت تشعر على العكس بأنها جميلة ورقيقة. كانت تشعر بالكبرياء بما يكفي لترفض أن تُرسل تلك الصورة الكئيبة لنفسها لتوضع على افتتاحية كتاب أحلامها، ولكي تلتقط صورة أخرى كان أمرًا عسيرًا إلى حدٍّ ما، وأيضًا مكلِّفًا. كان الأمر يتطلب بعض القوة والشجاعة، والأهم من ذلك الخبث؛ انتزعت بعض أنصاف اللترات الأخرى من الزيت والنبيذ من ميزانية المنزل، وقامت برحلة إلى حديقة تملكها العائلة، قريبة من منزل المصور، وكل شيء، في هذه المرة، تم على ما يُرام. ظهر رأس كوزيما من خلف مِروحة كبيرة من ريش الطاووس الأسود التي فتحتها ببراعة فوق صدرها النحيف. ظهرت كأنها جناح، ويمكن أن يكون أيضًا أمرًا رمزيًّا. وكانت عيناها بهما ارتخاء شرقي، مبالغ فيه نوعًا ما، ووجهها شديد العذوبة، ويظهر لطيفًا، برغبتها قليلًا، ولكن الأكثر ببراعة المصور الذكي الذي فهم بطريقته الغرض من الصورة. كان قد فهم أن تلك الصورة لحبيب ما، وبأنها ستُرسَل إلى شخص ترغب كوزيما في جذبه بسبب الحب، وأيضًا بسبب الفن، وأن هذا الحبيب الأول بعيد، غني كالملك، وربما أيضًا أشد تأثيرًا. كان جمهور القراء، وبخاصة الشباب، من الأذكياء والمتعطشين لرُوحها وخيالها.

نال الكتاب بالفعل نجاحًا نسائيًّا كبيرًا، قرأته كل الفتيات، وعثرن فيه على أنفسهن، ومعهن قصص حبهن الموجودة في الكتب أكثر من الواقع، وعلى قصص لقاءاتهن العاطفية الليلية المتخيلة، وعلى ريشات نعامهن الذي لا يستطيع الطيران. أرسل إليها الناشر بمائة نسخة كأجر لها على عملها، لم تعادل قيمتها قيمة الزيت والنبيذ المسروقَين من المخزن، وهبطت الحُزمة الضخمة على منزلهم كأنها النيزك. فزعت أمها منها، وكانت تسير حولها في كل مساء بشك كلب مرتاب رأى حيوانًا غريبًا.

لحسن الحظ، تذكرت كوزيما أن أحد أبناء عمومتها، من الدرجة الثالثة، يمتلك محل حلاق، ويبيع فيه الصحف والمَجلات، وكان أيضًا أحد المثقفين، لأنه كان المراسل المحلي للصحيفة الإقليمية. ووافق على اقتراح كوزيما بأن تبيع بعض نسخ روايتها التي تلقتها، بلا مقابل.

ولكن بالنسبة إلى المؤلفة كان الأمر كارثة معنوية تامة، ليس فقط بسبب العمتين الكريهتين، بل بسبب كل العقلاء في البلدة، والنساء اللاتي لم يعرفن القراءة، ولكن اعتبرن أن الروايات من الكتب الممنوعة، وتحول الجميع ليصبحوا ضدَّ الفتاة. كانت محرقة من

الخبث والافتراضات المخجلة، والتنبُّؤات بالانحراف. كان صوت صُراخ يوحنا المعمدان من سجنه المظلم، بعفته البَرِّيَّة، ضد هيرودس، أقل تصلُّبًا.

أندريا نفسه شعر بالاستياء، لم يكُن يحلم بمجد أخته بهذه الطريقة، أخته التي أصبح يخشى ألا تعثر لنفسها على زوج. ولكن الشيء الذي واسى الكبرياء الجريحة لكوزيما هو أن الخطابات الأولى للمعجبات بدأت في الوصول، وبعض الخطابات من بعض المعجبين الشبان جدًّا، وهو الشيء الذي شجعها بشدة. أحدهم أرسل إليها من روما — من روما! — قصيدة حب قصيرة، مُلحَّنة، مهداة إليها. كانت تملك حقًّا روحًا نقدية معينة تستطيع من خلالها أن تحكم على الأبيات الطفولية ذات الأغلاط النحوية — ليست أكثر من أخطائها — ولكنَّ كبرياءها شجعتها بأن الموسيقى كانت أفضل. لم تكُن تعرف حتى نوتة واحدة، ومن الموسيقى كانت قد سمعت حتى الآن موسيقى القيثارة والأكورديون، وأُرغُن الكاتدرائية، ولكن ما كان يُشعِرها بالفخر ويهدهد خيالها هو واقع أن هذا الإهداء جاءها من شابٍّ، وربما فتًى؛ فتًى لا يعرف كيف يؤلِّف موسيقى ولا شعرًا، ولا بد أن يكون في وضع اجتماعي لأناس متعلمين، ربما كان هو أيضًا بدوره كأنطونينو، ما زال هاويًا، وربما أيضًا في طريقه للتقدم بطريقة أكثر رقيًّا من تلك التي للقرى المحلية، وكان له أيضًا مِيزة أنه شخص يبالي، بل وفكر فيها، وأنه على الشاطئ الآخر من المحيط الفريد للأحلام حيث تعيش هي. كان حبها الأول البعيد، كله لها، لأنها لم تكُن تعرف عن الموسيقِيِّ المجهول لا عنوانه ولا حتى اسمه — عرَفَت فقط سنه وجنسه؛ لأن الأبيات كانت تكشفهما، ولم يكتب، ولم يتحدث، ولم يغنِّ بعد ذلك قط. كان مثل صرخة العصفور في الليل، استدعاءً عابرًا للعندليب، المخدوع هو أيضًا بالفجر البعيد، كان مثل أغنية شبح أحد المغنِّين المتجولين الذي هبط من الغابة المنيرة على صفحات كتاب رومانسي.

بدأ هذا الأمر يفصلها عن أنطونينو، بالإضافة إلى أنه لم يشر أدنى إشارة إلى أنه أدرك، كان بالنسبة إليها بالتأكيد حدثًا غير عادي. أصبح خيط من الاحتقار يحاك حول ذكرياتها عنه، بل كان مثل خيط قُطع في نسيج ثمين، رويدًا رويدًا يجذب الخيوط الأخرى، ولا يمكن إصلاحه. ثم حدث شيء آخر، أدرك وجودها شاعر آخر، وكان هذا قريبًا ويمكن الوصول إليه، لأنه كان يفعل كل ما يستطيع من أجل هذا. ولكن، يا للأسف! كان شاعرًا صغيرًا، حزينًا وبائسًا. كان أعرج منذ ميلاده، لم يتمكن من الدراسة إذ لم تكُن لديه الإمكانيات المادية، ولم ينجح في العثور على وظيفة محترمة لأنه لم يدرس. كان ابنًا غير شرعي للمستشار، ذلك الذي أتى ليسكن في نهاية الشارع، وكان يُقال إن المستشار نفسه

لا يعترف به، ولكنه يصحَبه معه ويعُوله ويجعله يقوم بمهمة الناسخ، وهو الأمر الذي كان يسمح له بكتابة أبياته.

كان المستشار أرملًا، وكانت له ابنتان أكبر سنًّا، إحداهما لها شعر أسود مصبوغ وبه تموجات دهنية، والأخرى كان شعرها الأشقر يشبه الأرض المحروقة بعد الحصاد، ذات وجنتين مُشعرتين كأنهما لِقطَّة. كانت عائلة متحابة، وكانت الفتاتان تحلمان بزيجة ثرية لأخيهما المزعوم. كان اسمه فورتونيو، وكانا يتمنيان أن يجلب له اسمه، كمعناه، الحظ السعيد، وكان أيضًا وسيم الوجه، بعينين كَستَنائيتين، بهما نوع من الأنوثة، وكان شعره ناعمًا، باللون نفسه، وتقريبًا درجة اللمعان نفسها. كان هناك شيء خامل وضعيف يميزه كشخص، حتى في الطريقة التي كان يشد بها قدمه المُعْوجَّة في حذائها الحديدي.

نجحت الأختان في مصادقة كوزيما، صداقة جادة إلى حدٍّ ما، ورسمية، ولكن كانتا ترسلان الخادمة لتسأل متى يمكنهما زيارتها دون إزعاج؟ وكانتا تصلان في الميعاد تمامًا، ترتديان ثوبين جديدين وقبعتين تبدوان كأنهما ببغاوان نافقان. وكانتا تعثران دائمًا على طريقة تتحدثان بها عن فورتونيو. أجل، فورتونيو أيضًا نشر كتيب شعر، وفورتونيو أيضًا يكتب رواية، وفورتونيو أيضًا يكتب ويرسل العديد من الخطابات. أرسل أيضًا خطابًا إليها، مع الخادمة، وعلى الفور خبأته كوزيما بالغريزة، ولكن عندما فتحته ضحكت، محبطةً قليلًا، لأن الزميل يطلب منها أن تترجم له إلى الإيطالية كلمةً دارجة مُستخدمة كثيرًا في البلدة، ولكنه لم يكُن يعرف معناها بدقة. أجابت هي، وكتب هو مرة أخرى ليشكرها. وكانت خطاباتهما عليها البصمات المزيتة لأصابع الخادمة.

ثم توطدت الصداقة، وذهبت كوزيما مع أختيها لزيارة الصديقتين الجديدتين، ولاحظت أن منزلهما كان منزلًا فقيرًا، غير منظم، وتقريبًا قذرًا. وتلك الخصلات السوداء المُجمعة، وتلك القُصة من الشعر الأشقر التي تتساقط على العينين البيضاويتين للكبرى من بين العانستين، تمنحانها شعورًا بالريبة، بل تقريبًا بالنفور. ونما ذلك الشعور عندما لم تعرف كيف عثَرت الساحرتان الشريرتان على طريقة لتقودا بها الفتاتين الصغيرتين لتريا زَهرية تحتوي على زهرة الجيرانيوم في حجرة الجلوس في المنزل؟ وفي الحجرة التي كانت تُستخدم أيضًا حجرةً للاستقبال وللطعام في آنٍ واحد، دخل، كأن ذلك حدث بالصدفة، الأخ الأعرج. وبينما كانت منحنية لتنظر على المائدة المغطاة بسجادة مصنوعة من قطع مُجمعة من علب الكبريت، والبعض منها يحتوي على صور لمناظر طبيعية، سمعَتْ صوتَ حذائه كأنه صوت حدوة حصان، يتوقف أمام عائق ما، وقفزت على قدميها واحمرَّ وجهُها وهي تشعر بالفزع.

في الحقيقة، اكتسى وجهه هو أيضًا باللون الأحمر وكانت شفتاه ترتعشان، ولكن هذا أدى إلى أن تلاحظ كوزيما أن له فمًا جميلًا ممتلئًا، ولكنه أيضًا مثير للشهوة، أو إذا أمكن القول: نوع من الشهوة صحي وجذاب مثل الفاكهة الطازجة. لأول مرة تشعر بما يجب أن تكون عليه القبلة، تشعر بها حسيًّا، القبلة الجسدية بين اثنين يشتهي كل منهما الآخر ويرغبان، بل ومندفعان لأن يلمس كل منهما الآخر بقوة الطبيعة الشديدة، وارتعش فمها أيضًا، ولكن مثل ذلك الذي لطفل على وشك البكاء ولا يعرف لماذا؟

كان فورتونيو بالتأكيد — على الأقل فيما يبدو — محظوظًا مع كوزيما. ولكنه كذلك لأنه كان شجاعًا ومندفعًا في الأساس بشعور غامض من الكراهية نحوها، ونحو كل الطبقة المغرورة والمتكبرة التي تنتمي إليها. فهي تقريبًا غنية، وتقريبًا نبيلة، على الرغم من أخطاء أخويها الجسيمة، تُعتبر فتاة من مستوًى أعلى. وصفتها الغامضة باعتبارها كاتبةً، فوق كل شيء، تجذب انتباه البلدة كلها نحوها، والناس الأبعد أيضًا، وكان فورتونيو ذكيًّا بما يكفي ليفهم بأنها تجرب حظها، يمكنها أن تخسر، ولكن يمكنها أيضًا أن تكسِب. ويعرف حق المعرفة، أفضل من سكان البلدة، بأن الفنان الحقيقي له مستقبل. وشعر هو في كوزيما بهذا الفنان، بينما حُرم هو من كل شيء، حتى من تطلعاته الثقافية.

كانت المشاعر التي بدأ يشعر بها نحوها صادقةً جزئيًّا، ولكن من جهة أخرى جشعةً وأنانيَّة. والخطابات التي بدأ يكتبها لها بحماس، ويرسلها إليها ملتصقة بأغلفة الكتب التي يتبادلانها أمام الجميع، خطابات جميلة، شاعرية، حسية، ربما من أجمل الأشياء التي كتبها خلال الفترة القصيرة التي امتهن فيها الكتابة. كوزيما تلتهمها بنهم، وتخبئها جيدًا جدًّا؛ خوفًا من أن يكتشفها أندريا، وإذا اكتشفها أندريا بالتأكيد ستحدث الكثير من الكوارث، لأن فورتونيو بالنسبة إليه بالتأكيد في مستوًى أقل اجتماعيًّا وجسديًّا، كان أقل من خادم، ومن عازف متجول، وكان يغفر له بهذه الصفة أيضًا لأنه لم يكُن لديه أي شكوك بما يدور في رأسه، الأغنيات التي يعزفها بالقيثارة، تلك الأغنيات العاطفية العامية التي يسمح الشاب الأعرج لنفسه بأن يغنيها مع بعض الأصدقاء أسفل نافذة المنزل، كانت عادة محلية قديمة جدًّا على الرغم من أنها مختلفة عن تلك الغزليات الشعبية المكونة من الجَوقات الشفهية والأغنيات القديمة، كانت فرقًا موسيقية تشبه تلك البرجوازية، ومكونة من طلبة وشباب من طبقة ليست قروية بشكل حصري.

كانت أغنياتٍ شبهَ محفوظة تصحبها موسيقى القيثارة والمندولين، وأيضًا الأكورديون، تتسبب في أن ترفع الفتيات الشابات الحالمات رءوسهن من فوق وساداتهن الخالية اليابسة. ولكن من الصعب التعرف لمن يوجه الصوت العاشق، الذي يشق صمت

الليل، نداءات الحب. لأن المُحب، الذي بالتأكيد يجد صعوبات في تطلعاته العاشقة، وليخلق لنفسه نوعًا من التمويه، لم يكُن يقف قط، مع فرقته أسفل نوافذ المحبوبة، ولكن أسفل العديد من النوافذ لمنازل تسكنها صبايا. هكذا يمكن أن تُمرَّر رغبته في الفضفضة، على أنها لأحد هواة الأغاني العاطفية، ذي رُوح تحب حُلمه الكوني بالحب أو أيضًا لفنان يمارس الغناء أو العزف الليلي.

لم تنخدع كوزيما ولو لحظةً عندما سمعت في إحدى الليالي صوت فورتونيو. في البداية سمعته من بعيد، ثم بدأ الصوت في الاقتراب أكثر، عاصفًا ودافئًا ويكاد يكون ملموسًا، تمامًا كما ترتفع الرياح من البحر البعيد، ثم بعد ذلك من الوادي في ليالي شهر مارس، تلك الرياح التي تعلن عن قدوم الربيع من الأراضي الشرقية. كان صوته قويًّا دافئًا مختنقًا قليلًا كصوت تَنُّور حقيقي. كانت أختا فورتونيو قد اعتمدتا تقريبًا على هذا، وكانتا تأملان في أن تصنعا منه مطربًا، وكان يعرف كيف يختار أشعاره، مُعدِّلًا إياها بكلمات من إبداعه، أكثر الأشعار المناسبة لتتخلل كالحُلم فِراشَ الصبايا، وتحيط بهن بقوة وبدفء مثل أجنحة الملائكة حتى تتحول إلى حضن آدمي مشتعل بالرغبة.

حاولت كوزيما أن تتفاعل، في واقع الأمر لم تكُن رومانسية، بسبب العديد من التجارِب القاسية التي عرَفتها في الحياة الحقيقية. ولكن ملل أيام بلا أمل في أي تغير ملحوظ تقف حولها مثل عقاب غير عادل، عقاب قديم لبنات جنسها، تشتعل بجملتها برغبة في الطيران، لتنطلق بعيدًا في الأفق الواسع نحو حياة مليئة بالحركة. وهكذا أصغت السمع إلى الصوت المتغزل، على الرغم من أنها تشعر نحو فورتونيو بالرِّيبة وتقريبًا بالاحتقار.

في أحد أيام شهر مايو عندما خفَّت مراحل النشوة الأولى لمغامرتها الأدبية لتترك مكانها بداخلها يأسًا ثقيلًا، زاد على ذلك أن وصل إليها نقد مكتوب بخط اليد لعملها «الفقير ولكن المخلص»، إذ إن الرواية، «تلك القصة القصيرة، أو إذا أمكن أن نقول تلك القصة المتواضعة للأطفال، والمنشورة في مَجلة متواضعة للمراهقين، والتي نُشرت كلها أو جزء منها، حيث حُذفت أجزاء بغرض خبيث وبضربات فأس عنيفة، ولكن كل شيء بمنطق وبِوَعْي»، واختتم الناقد كلماته: «كل شيء تضاءل إلى شظايا، جيدة لتشعل النيران حيث تُعِدُّ والدة كوزيما الخبز. فلتعودي، فلتعودي إذن أيتها الصغيرة المصابة بداء الكتابة القهري، إلى حدود حديقة أبيكِ، لتزرعي أزهار القَرَنفُل والعسل، عودي لتصنعي الجوارب، لتكبَري، ولتنتظري زوجًا صالحًا، لتُعدي نفسكِ لمستقبل صحي مليء بالمودَّة العائلية والأمومة.»

بكت كوزيما من الغضب والإهانة، بكت، ولكن في داخلها شعرت بهزة عميقة. شعرت بأنها أخطأت الطريق، وقررت أن تعود بالفعل إلى ملجئها المغلق ولقدرها الحقيقي. مزقت

ورقة الإدانة، وعادت من جديد لأعمال التطريز والطهو وللجولات مع أختيها وللرحلات المريحة في الأرياف الجميلة المنتعشة بالربيع الرائع.

وفي إحدى تلك الرحلات انضمت إليهن أختا فورتونيو، بل وأحضرتا المؤن الضرورية للغداء على الأعشاب، بجوار نبع المياه الذي يندفع من صخرة على سفح الجبل. ومرت ساعات من السعادة الصافية والبريئة، واستطاعت كوزيما أيضًا في أثناء تأملها للغروب على قمم الجبال المقابلة للوادي فوق أشجار الزيتون الحالمة أن تنحي جانبًا الاقتراحات المظلمة بأن تهجر كل أحلامها الإبداعية. كان الجرح يلتئم، وتشعر بفرحة الشفاء عندما امتدت ظلال على نور قلبها، ذلك النور الوحيد الذي تشعر به حقيقيًّا ولامعًا وصافيًا كنبع الصخرة. ظهر من الطريق المقابل ظل فورتونيو.

كالعادة، كان يبدو كأنه وُجد في المكان نفسه من قبيل المصادفة. ينحني على الطريق المرتفع ويتشاور مع أختيه اللتين دعتاه لأن يقترب، وأن يشترك معهن في الطعام، بنوع من الحقوق، لأنهما من أحضرتاه. غير أنه رفض بقسوة وحزن، مدركًا هو بدوره الموقع الذي ينتظره، مستندًا إلى سياج الطريق بحيث يخفي قدمه المُعْوجَّة، ويُظهر فقط الرأس الجميل بعينيه وبشفتيه الطازجتين اللامعتين اللتين تتلألآن في انعكاس الغروب، وينظر بحزن بعيدًا، ساندًا خده على يدٍ رفيعة، ذات أظافر تبدو كالرخام الوردي. بدا لكوزيما مثل أحد تلك الوجوه الرومانسية التي تعجبها، في رسوم إحدى طبعات سانتوس القديمة لشاتوبريان. وكانت هكذا: شابًّا تعس الحظ، تعذبه قصة حب سرية، يختفي وحيدًا في غروب ريفي مستندًا إلى سياج أو جالسًا على جذع مخلوع لشجرة بلوط بين لَبلاب الكروم، وصخور تغطيها الطحالب، يتأمل في قدره الحزين. حزينًا كان حقًّا قدر الشاب فورتونيو، ولم يستطع قلب كوزيما ألا يستقبل صداه، بين الأصوات الإبداعية التي تقص عليها الشعر الأبدي للألم الإنساني. وهكذا، عندما بدأت المجموعة في رحلة العودة، تاركةً الشاعر تعس الحظ وحيدًا، مستندًا إلى صخرة النبع يستمع باستغراق بدوره للنغم الحزين بين الظلال التي تحولت للون الذهبي للغسق، سارت بمعزل عن المجموعة، رأسها منحنٍ، بينما رفيقاتها تطارد بعضهن بعضًا على الطريق وتغنين وتضحكن مثل بنات الفلاحين في طريق عودتهن من العمل في الحقول.

طلع القمر بين أسنان الجبل وفوق القمم التي تعطي الانطباع بأنها أطلال قصر ما، وكان ضوءُه الأرجواني يختلط مع الأفق البرتقالي، وملأت رائحة الخضرة الرطبة الهواء الدافئ كأنها أغانٍ بعيدة تجيب عن تلك التي تغنيها الفتيات، وتصحب وتنقل على أجنحة قوتها حزن كوزيما الغامض.

ماذا تريد كوزيما؟ حتى هي لا تعرف هذا، كانت تود لو توقفت، ألا تعود إلى منزلها الخانق، أن تستند معه إلى سياج الطريق المتسع، فوق الوادي المليء بالغموض، وأن تتبع مسار القمر في السماء الذي يشتد وضوحًا وضياءً.

لم تهتم بها الرفيقات، تركت أختيها لسعادة صديقتيهما أن تأسرهما، وتقودهما للأمام، وظلت هي بمفردها، تشعر بالضياع، كأن أحدًا نسيها في الطريق، وفي العالم. عبرت بجوارها بعض عربات الفلاحين التي تجرها الثيران الناعسة، وبعض الرجال على جيادهم، وبعض النساء المتأخرات العائدات بعد أن غسلن الملابس في النهر، وكانت الظلال تمتد لتعبر على الشارع الأبيض، وكانت الأصوات والخطوات تعزف بعذوبة في الهواء الرطب والمُعطر. وإذا بخطوة مختلفة عن خطى الآخرين، بها شيء غامض، مثل خطوة كائن خيالي، قَزم، أو عملاق يحاول ألا يتسبب في ضوضاء، أو بلفيجور،[٥] أو رئيس ملائكة يمكنه بضربة جناحيه أن يحملك إلى الأبراج الفِضية ومنحدرات جبل مجنون.

إنه فورتونيو. كان سيليق أكثر في الشخصية بقيثارته على ظهره، مثل مغنٍّ متجول نزل للتو من غابات البلوط الأخضر، المحيطة بتلك القصور المُتخيلة في الأفق. ولكنه كان ممسكًا بكتاب في يده، كتاب أبيض لونه في ضوء القمر، يحتوي كلمات ساحرة تفتح باب الأحلام. كانت أشعارًا، أشعار حب.

لحق بكوزيما وأخذ يسير بجوارها في صمت. لم تكُن تشعر بالدهشة. كان كل شيء كما يجب أن يكون. وعندما وضع بخفةٍ ذراعَه المرتعشة حول كتفيها، لم تعترض، ولم تحاول أن تحرر نفسها. كان كل شيء كما يجب أن يكون. كان شيئًا من إعداد الأختين الخبيثتين، أختَي فورتونيو، ولكن يبدو أيضًا كأنه السحر الذي أنتجته الساعة والمكان، من القدر الذي يحمي العشاق. حتى الظلال الكثيفة التي امتدت للطريق، في منحنًى حيث الصخور تصل حتى حواجز الحراس، تبدو كأنها ستار مُخمَلي، يحيط بالشابين المُبدعَين ويسمح لوجهيهما الصافيين أن يصبحا وجهًا واحدًا: وجه الحب.

كان كل شيء يبدو كأنه يعمل على حمايتهما، الطريقة السهلة لتبادل الرسائل، الطريق المشترك، قرب حديقتيهما. ومن حديقة كوزيما في الليل، عندما كانت تعرف أن

---

[٥] بلفيجور في علم دراسة الشياطين demonology، في المسيحية، هو شيطان، وأحد أمراء الجحيم السبعة، الذي يُغوي الناس بأن يقترح عليهم الاختراعات المبدعة التي ستجعلهم أغنياء. طبقًا لبعض علماء الشياطين من القرن السادس عشر.

أمها وأختيها يخلدْنَ للنوم؛ الأولى يلفها أيضًا في نومها حجاب المعاناة والصلوات، بينما الأختان في أحلامهما التي لا تزال بيضاء من البراءة، ينجح فورتونيو على الرغم من إعاقته في أن يتسلق السور، وهناك يعثر على صديقته الصغيرة، منقطعة الأنفاس بمشاعر صادقة في ظل ملاكها الحارس، في حيرتها وصمتها، كأنها شبح نفسها. تتركه يقبلها، وتشعر بدفء جسده، وارتعاش أنفاس ذلك البطل الساحر، ذلك العنف العاجز الذي به يرغب في أن يأخذها بعيدًا، ولكن حمتها قوة باردة، تكاد تكون تحليلية شريرة في ذلك النوع من صراع المشاعر، من نفسها ومنه. تخرج منها متعبة، مشمئزة، تشعر بالمرارة من الخزي والندم؛ الندم لأنها تعتقد، من بين الأشياء الأخرى، بأنها ترتكب خطيئة، لأنها لن تتزوج أبدًا من فورتونيو.

بيد أن أخبار قصتهما سرعان ما تسربت، وتسببت في موجة جديدة من الفضيحة بين الناس الصالحين في المنطقة. غير أن الجميع فهموا! كوزيما فقط كانت قادرة على تلك المغامرات، مع شخص أعرج، مع شخص لا نسب له، مرفوض من القدر. وفي أحد الأيام قال أندريا، في ميدان عام، إنه سيكسر بعصًا القدمَ الأخرى لـ «عازف القيثارة». وأعد لكوزيما جرعة من الصفعات واللكمات التي، بالإضافة إلى إيذائها الجسدي، سحقت رُوحها مثل الملح في الجرن.

الفصل السابع

وهذا الدرس أيضًا كان بمثابة درس آخر من دروس الحياة، حيث شعرت بأنها لا تشبه بالفعل، ويجب أيضًا ألا تشبه، فتيات «العائلات الجيدة» واللاتي يرتكبن هفواتهن العاطفية بلا ضمير وبخبث، وأن الله قد منحها ذكاءً أكثر من المعتاد، ومنحها أيضًا فوق كل شيء ضميرًا نقيًّا وعميقًا مثل المياه التي يمكن للمرء أن يرى فيها كل خيط من خيوط الضوء والظلال، لتحكم على نفسها بمفردها في طريق الحق. بدا عقاب نزوتها مع فورتونيو، نزوة فضول المشاعر، وأيضًا الفضول الحسي، بدا لها عقابًا عادلًا، وقررت أن تعتني بنفسها، وأن تعيش بإيمانها. حتى تفكيرها في أنطونينو، بدا لها فجأة شيئًا سقيمًا. لماذا عليها أن تتبع وهمًا لا فائدة منه وفي واقع الأمر مهين لها؟ لم تعد تقف في النافذة لتنتظر ظهوره، لم تعد قط مع أختيها لزيارة الصديقات، وأغلقت على نفسها في دائرة من الصمت، والاستسلام والعمل.

ثم ضغطت عليها الحياة اليومية، وازدادت الأيام كآبة، كأنها شتاء طالت أيامه. في إحدى الليالي سُمع في منزلهم أنين غريب، ثم صوت أندريا الذي يحاول أن يقنع أخاه سانتوس بأن يستلقي على الفراش وأن يهدأ. ولكن البائس يجادل وهو يصرخ أن أسفل فراشه يوجد رجل أسود يريد أن يخنقه، ثم يطرق الجدران وهو يصرخ بأنها مليئة بالعناكب السامة ومئات الأقدام.

في لحظة واحدة نهضت الأم والخادمة والفتيات وأحطن بالأخوين، وأدركن أن سانتوس الشاحب الذي يرتعش رعشة غير إرادية، وعيناه كبيرتان معدنيتان، يهذي. ولكن كان هذيانه بشعًا، أفظع من هذيان محتضَر أو مُصاب بالسُّعار. فهم أندريا ما يحدث لأنه قد رآه من قبل. بيد أن رعبًا لم تعرفه من قبلُ غزا كوزيما، كأن المنزل بالفعل كان مليئًا بالرجال السود المرعبين، مستعدين لارتكاب جرائم مرعبة، وأن الجدران أعشاش

لزواحف سامة. اعتقدت الأم أن سانتوس قد لبسته رُوح شريرة، وفكرت في أن ترسل لتستدعي أحد الكهنة إلى المنزل ليخرجها. ولكن أندريا سخر من الفكرة، واستطاع أن يعيد أخاه إلى الفراش، وسهر عليه طَوال الليل. كانت ليلة من العذاب لا يمكن نسيانها، وخلالها عرَفت كوزيما صفحة أخرى من صفحات كتاب الحياة الرهيب. وبدلًا من الكاهن حضر الطبيب الذي نصح أن يذهب سانتوس ومعه أندريا — الذي عرض بأن يسهر على أخيه — ليسكنا في منزل صغير تمتلكه العائلة في بستان قريب من المنزل. جُهزت وأُعدت حجراته الصغيرة الفقيرة في الطابق الأرضي على أكمل وجه، ولم يكُن فيها سوى نافذتين تطلان على الجبال البعيدة. وتركهم سانتوس ليقودوه إلى هناك بوداعة، فقد كان في أعماقه طيبًا ووديعًا، وأول من شعر بحزن مميت بسبب الداء الذي أصابه، والذي أعلن الطبيب بأنه مرض، لا يمكن للمريض — حتى مع كل ما لديه من قدرة — الشفاء منه. كان هناك ألم عميق يمكن قراءته في عينيه الفاتحتين. من حين لآخر يحاول أن ينهض بنفسه، يتوقف، ويحاول العمل، ولكنه يسقط من جديد كأنه نبات قُطع، ولم يمت بعدُ، من جذوره، ولكنه لا جدوى في علاجه لنفسه، ومُضرٌّ للآخرين.

وفي منزل الفتيات ساد الهدوء النسبي، ولكن ظلال الألم كانت تحيط به، وأصبحت الأم أكثر صمتًا وشحوبًا، وأحيانًا قلقة، ذلك النوع من القلق لمن ضاع منه شيء ثمين. بدأت أيضًا تتصرف تصرفات غريبة، أحيانًا كانت تخرج من البيت خفية ببعض الأشياء أو بلفَّةٍ ما تخفيها أسفل شالها، وكانت تذهب إلى المنزل الصغير لابنيها، لتأخذ لهم بعض الطعام أو الملابس. ليس لأن هناك شيئًا ما ينقصهم، بل عندما يصبح سانتوس هادئًا كان أندريا يذهب ليأكل مع العائلة، وكان كلاهما يذهب يوميًّا إلى المنزل، ولكن الأم كانت دائمًا تخشى أن ينقصهما شيء ضروري. تفكر فيهما كأنهما طفلان تاها في الغابة، وتذهب للبحث عنهما، بيد أنها هي أيضًا تضل الطريق في ظلال غابة خطيرة، غابة اليأس.

بالقرب من المنزل الصغير للأخوين توجد أيضًا معصرة للزيتون ملك للعائلة، عبارة عن حجرة طويلة، لها شكل غير منتظم، داكنة، ولكن في الوقت نفسه منيرة، كأنها حُفرت في جبل صخري. وكان الحصان القوي الذي يعمل على تدوير العجلة بداخل الحوض المستدير حيث يُطحن الزيتون الأسود، مثل الشحم نفسه. كانت العجينة ذات اللون البنفسجي للزيتون التي تُسكب داخل السلال المستديرة يطحنها المكبس الحديدي، ولكن المكبس موضوع داخل شيء كالعش محفور في الجدار، يتحكم فيه الرجال؛ الطحان ومعه مساعده. كان الزيت يتساقط أسود ودهنيًّا داخل برميل كبير، وكانت القشور التي تتبقى بعد عصير

العجين تُلقى من نافذة كبيرة إلى الحديقة، مكوِّنةً جبلًا تفوح منه الرائحة، وبدوره يشتريه صاحب المحل نفسه، الذي في الصيف يبتاع اللوز من العائلة، وكان ذلك بالإضافة إلى الزيت يدر عائدًا معقولًا، وكان المُلاك يدفعونه مقابل صناعة زيت الزيتون. ولكنهم إذا لم يراقبوا الطحان عن كَثَب — وهو رجل صغير، متدين، له عينا قديس حقيقيتان، وخدم العائلة من سنين عديدة، وكان بالفعل يحبهم كثيرًا — لسرق الزبائن ورؤساءه أيضًا.

كان المكان مزدحمًا دائمًا بالناس، أيضًا لأنه في إحدى الزوايا، بين النافذة والمطحنة، تشتعل دائمًا نيران ضخمة فوقها آنية كبيرة تحتوي على ماء يغلي، تُغمر فيه وتُغسل السلال، وحول النيران تجتمع مجموعة من الأشخاص الذين، في المساء بصفة خاصة، يشكلون لوحة تليق بريشة رامبرانت.[1] كانوا جميعهم من العاطلين والفقراء، ولكن من نوع فقر غريب، يرجع إليهم وليس إلى أقدارهم. يذهبون إلى هناك ليستدفئوا، وليصبرهم لقاؤهم بعضهم مع بعض.

كان قائد هذه المجموعة رجلًا متورد اللون، وكان غنيًّا، ولكنه صرف أمواله على النساء والنبيذ، ثم مسنًّا بلحية كلحية البطريرك، وهو أيضًا تعرض للإفلاس، ويعمل بستانيًّا في وقت فراغه، ويصطاد القطط التي يأكلها بعد ذلك. وهناك منبوذون آخرون كانوا لا يستطيعون المكوث مع الفلاحين المهرة ولا صغار المُلاك، الذين يُحضرون زيتونهم لعصره. ينضم إليهم أيضًا صاحب المعصرة نفسه، أندريا، الذي يحضر من حين لآخر ليشرف على المطحنة.

كان سانتوس موجودًا بينهم دائمًا، وعندما يحضر يتحرك الجميع ليفسحوا له مكانًا، يسير هو أيضًا في المنحدر المُدمر للرفاق البؤساء المجتمعين حول النيران، ولكن ما زال الجميع يكنون له احترامًا، لأن عائلته ما زالت تسنده ولديه مسكن ويعيش في حماية أخيه. ولأنهم يعرفون كرمه، يحاولون أن يكسِبوا صداقته ليتمكنوا من الحصول منه على بعض النقود، ولكنه على الرغم من وعيه المشوش الذي غالبًا ما كان يستغرق فيه، يفهم حالته، ويعرف ما بداخل قلب جاره، ويحب فقط صحبة منبوذي المعصرة لأنه يشعر بالفعل أنه رفيقهم في القدر نفسه. يجب ألا نفكر في تلك اللقاءات على أنها حزينة، بل على العكس، عندما تجفف النيران ملابس المتشردين الفقيرة التي يرتدونها، التي عادةً ما كانت تبللها

[1] Rembrandt: رسام هولندي وُلد في أمستردام عام ١٦٠٦م وتوفي عام ١٦٦٩م. تميزت لوحاته بقوتها التعبيرية، وكانت تفيض بدفء الحياة والمشاهد الإنسانية للحياة اليومية.

الأمطار، وكانوا ينجحون، في عطف من القدر، أن يحتسوا النبيذ، أو الأفضل أن يحتسوا المشروبات المسكرة، تسود بينهم سعادة طفولية عارمة، ثم يبدأ أحدهم في غناء أجزاء من الأوبرا، وآخر يخرج الخبز ويكسره، ويسكب الزيت على قلبه اللين، ويشويه على الفحم، ثم يقسمه بروح أخوية مع رفاقه. وكان سانتوس يرسل لإحضار زجاجة من النبيذ ليشربوا نخب صحة الجميع؛ الصحة وطول العمر، وحياة تنتمي إلى من يستمتعون بها.

كانت الأيام تتلون باللون الرَّمادي تقريبًا دائمًا، في برد صباح أواخر أيام الخريف، ولكن رويدًا رويدًا تبدأ السماء في التفتح، وترتفع فوق الجبال التي تتخذ لمعانًا داكنًا للمستنقع، وفي أعلى تُفتح العين، بيضاء في البداية ثم تتلألأ من الشمس، كأنها عين نائم، يستيقظ مبتسمًا أمام الواقع العذب بعد أن صارع مع حلم حزين. عندئذٍ يتلون كل شيء، تبدو السماء كبحر تبعثرت فيه الجزر الصخرية، وعلى فروع الأشجار تبدأ الأوراق الأخيرة في الارتعاش كأنها فراشات ذهبية، وتستعيد الجبال لونيها الأزرق والوردي.

عندما يكون الجو جميلًا تذهب المالكة إلى البستان ولم تكُن تستحي من أن تزرع الكرنب والخرشوف هي و«بناتها». كانت كوزيما تبلغ من العمر عندئذٍ عشرين عامًا، ولكنها تبدو أصغر سنًّا أحيانًا، وأكبر أحيانًا أخرى، بوجهها الأبيض المتجهم، وعينيها اللتين تبدوان ثائرتين، وجبهتها بالشعر المشدود إلى الخلف، على طريقة كبار السن اللامبالية. ينفرج وجهها ويضيء مثل الشمس في تلك الصباحات الغريبة، عندما تخرج ضحكتها مجلجلة من بين أسنانها المستقيمة بعنف المياه الخارجة من الصخرة. الآن وفي فترات غياب أندريا المجبر على الذَّهاب إلى الريف ليشرف على من يعمل هناك، ولأنها تعرف أن الطحان يمكنه أن يملي على سانتوس ما يريده بقوة المشروبات المُسكرة، تخترق المعصرة بشجاعة، وتقوم بنفسها بالتفتيش بجسارة. كان يوجد أيضًا في حجرة أندريا الصغيرة سجل يُسجَّل فيه «عدد طحنات» الزيتون، ومع كل طحنة يدفع صاحب الزيتون واحدًا وثلاثة أرباع هيكتولتر من الزيتون، مكوَّنة من لترين من الزيتون الخام الذي يُترك في الإناء المخصَّص لذلك، أو — إذا كان المالك يفضل ذلك — ما يقابل لترين من النقود. كان كثيرون منهم يتركون فترة قبل الدفع، ومِن ثَمَّ يظل الحساب مفتوحًا. وها هي ذي كوزيما تجلس إلى المائدة حيث توجد بواقي الخبز والطعام الذي تناوله أخواها، تتصفح السجل المبقع وتسجل قائمة من الأسماء وعدد الطحنات. كان هذا أيضًا نوعًا من الشِّعر، وكانت الشمس التي أبعدت السحب الصخرية الأخيرة وتشرق عالية فوق الجبال ترسل أشعتها الذهبية على الورقة التي تكتب فيها، وترسل لمعانها على شعرها المصفوف بقسوة.

وهكذا أصبحت على اتصال بعامة الشعب، بالناس الحقيقية، الكادحين منهم والوُدعاء، الذين حتى إذا استطاع أحدهم أن ينبش بمخالبه على القليل الذي يمتلكه جاره، مثل الطحان، سيفعل ذلك بأدنى حد، ثم سيذهب على الفور ليعترف بخطيئته. وحتى الاعتراف أيضًا به بعض الخداع مثل ذلك الاعتراف للفلاح المشهور الذي حاول أن يخدع أبَّ اعترافه بأن يقول له إنه سرق حبلًا. غير أنه بعد أن أصر رجل الله على سؤاله والتحقيق معه، قال في النهاية إن جاموسًا كان مربوطًا في طرف الحبل. بيد أنهم في نهاية الأمر أشخاص يمتازون بالطيبة، نساء محترمات يتظاهرن بالود، ورجال لا بد لهم من المصارعة مع الأرض العصية والمنعزلة، ومع الرياح والطيور والذئاب لينتزعوا القمح والنبيذ اللذين يتغذون عليهما مثلما يفعل الكاهن في القداس.

كانت كوزيما تلاحظهم وتدرسهم، تتعلم لغتهم، والأشياء التي يتشاءمون منها، لعناتهم وصلواتهم، ومن مكان ملاحظتها كانت ترى أيضًا اللوحة ووجوه المعصرة. كانت تستمع إلى القصص القصيرة التي يقصونها وأغاني السكارى، وعندما يؤلمها قلبها، وتحني رأسها خجلًا رؤية سانتوس، أخيها الذي وُلد ليحقق أعمالًا عظيمة، وهو ينحت عربات صغيرة لأبناء الطحان، أو وهو ينظف اللحم من فوق عظام القط المشوي بالاشتراك مع رفاقه، تفكر في أن الرحمة فقط يمكنها أن ترفع النفس المنحنية بسبب آلام الآخرين، وتحملها على جناحيها حتى أعلى قمم العالم، حيث يومًا ما سيصبح الجميع متساويًا في فرح الرب.

ومن بين علامة وأخرى في السجل يقص عليها زبائن المطحنة مآسيهم، وقصصهم الدرامية. يتوسل أحدهم إليها بأن تكتب له خطابًا أو التماسًا، وهكذا جاءتها فكرة روايتها الجديدة والمستوحاة من الواقع، والملونة مثل العجين الأسود لزيتون حوض المعصرة الذي يتحول إلى زيت، وإلى بلسم، وإلى ضوء، ومنحتها عنوانًا رَماديًّا، ولكن بداخله تخفي شظايا النيران، كان العنوان: الأغصان المتساقطة.[٢]

وهذه المرة ضحك الحظ لها. حاولت النشر لدى ناشر معروف إلى حد كبير، لم يوافق فقط على نشر الرواية، بل صدَّرها أيضًا بمقدمة كتبها كاتب مشهور. وفجأة قفزت

[٢] وعنوان الرواية الفعلية المقصودة هنا لديليدا هي Anime oneste النفوس الصادقة، وقد نُشرت عام ١٨٩٥م وكتب مقدمتها روجيرو بونجي Ruggero Bonghi، أكاديمي، وكاتب، وسياسي إيطالي وُلد في نابولي.

شخصية كوزيما في الأوساط الأدبية، محاطة بهالة من الغموض. ذلك الغموض الذي خلقه بُعدها هي وبلدتها، والأخبار المشوشة حول حياتها البرية تقريبًا بالنسبة إليهم. ولكن فوق كل شيء تلك القوة البريئة والشجاعة في الوقت نفسه، لقصتها، ونثرها البدائي، بل الذي يحتوي على بعض الأخطاء ولكن في الوقت نفسه شديد الفعالية، بالإضافة إلى شخصيات الرواية المتميزة.

وفجأة أصبحت مشهورة، الصحف والمَجلات بدأت تطلب منها قصصًا قصيرة، وأرسل لها الناشر نقودًا. لم تكُن نقودًا كثيرة، ولكن ما يكفي لتبتعد عن سرقة المخزن، وتبتاع ثوبًا جميلًا من الحرير الأسود ذي نقاط ذهبية، ووشاحًا من جلد الثعبان مغطًّى بريش النعام الأسود والأبيض.

عندما ظهرت مع أختيها، اللتين أهدتهما، لِتُفرحَهما، وشاحين أنيقين، في قداس أقامه الأسقف في أحد أيام الخريف الرائعة، اصطفت مجموعة من الشباب الأكثر ثقافة وتفتحًا في البلدة، الذين كانوا يذهبون إلى الكنيسة فقط للتلصص على النساء بين ممرات الكاتدرائية الجميلة، تحيط عيونهم المتأججة بالنيران بها. والنساء أيضًا كن ينظرن إليها من وراء ظهرها معجبات أكثر من أي شيء بثوبها ووشاحها المصنوع من جلد الثعبان ذي اللون الشبيه بالليلة المليئة بالنجوم، والمطوي على كتاب الصلوات الخاص بها.

كانت تطير، يبدو لها أنها طائر السُّنُونُو، وتشعر برغبة في البكاء. كان اجتياحًا من فرحة وانتصار، ولكن أيضًا من ألم عميق، وعندما ترفع عينيها المُندَّاتَين وترى النوافذ العالية أسفل قوس الكنيسة التي تكسوها زرقة تكاد تكون بلون البحر، وتفكر فيما خلف نافذة المطحنة، وفي السيدات الملطخات بالزيت الجديد اللاتي كن يقصصن عليها آلامهن. عندئذٍ تَنامى دُوار خفيف من أعماق رُوحها، كما كان يحدث في طفولتها عندما يتسبب ظهور جدتها في أن يثير في ضميرها عالمًا قديمًا أسطوريًّا تملؤه المغامرات. ويزيد طقس القداس والموسيقى من السحر. كان الأسقف طويل القامة، أرستقراطيًّا يشبه الأحبار الممثَّلين في الروايات الفرنسية العظيمة للقرن التاسع عشر. بيد أن صوته كان خشنًا قليلًا، ولكنه يضيع مع دخان البَخور والدوي الحنيني للأُرغُن، الذي يعزف أغنية جماعية من أوبرا نابوكو:[٣] «اذهب أيها الفكر على الأجنحة الذهبية ...» وكان كل شيء؛ الضوء والأصوات

[٣] أوبرا إيطالية من تأليف جيوسيبي فيردي في سنة ١٨٤١م، وسماها بهذا الاسم نسبةً إلى الملك البابلي الكلداني نبوخذ نصر الثاني.

والألوان، يتسبب في تصاعد الوهم المضيء لدى كوزيما، التي ترى نفسها تُحمل إلى عالم خيالي.

وبدأت حياتها بالفعل من تلك الفترة تتخذ إيقاع الحواديت. أخذت الصحف تتحدث عنها، حتى إنه وصل إلى بيتها، من مدينة بعيدة، صحفي طويل القامة، سمين وأشقر، تسبب حضوره في اضطراب كل الحي. تسببت زيارته تلك في استثارة أقصى أنواع الفخر وأمَرِّ أنواع الإهانة؛ الإهانة لأنها اضطُرت إلى استقباله في تلك الغرفة الفقيرة في الدور الأرضي، حيث توجد المكتبة القديمة التي تظهر فيها الأوراق القديمة الخاصة بأعمال والدها الراحل، ولكن كانت الأختان قد فرشتا مفرشًا قديمًا من الدانتيل على المائدة الصغيرة التي قدمتا عليها القهوة. كانت هي قد ارتدت ثوبها الحريري المرصع بالنجوم، ولكن لم تكُن تعرف ماذا تقول، بينما الرجل الأشقر يفحصها بعينيه الصغيرتين الخضراوين اللتين، بالنظر إليهما سريعًا وتقريبًا بخوف، تتذكر عيون القطط البرية المتربصة بالطيور الصغيرة التي تتعلم الطيران. بيد أنه كان دمث الأخلاق، وفي صحيفته كتب أن الكاتبة «الشاحبة الصغيرة العصبية (عصبية؟ لم تكُن تعرف ماذا كانت تعني تلك الكلمة، إلا أنها أعجبتها)، تلك المخلوقة الهشة، التي دون حتى أن تخرج من عشها الهادئ، تعرف على الرغم من ذلك، بطريقة تثير الدهشة، أسرار القلب الإنساني» إلى آخره. (آه يا أيها الرجل الأشقر الذي يعيش في المدن الكبيرة، والمتصل بالعالم الأكثر اضطرابا، أنت لن تعرف أبدًا من خلال خبرتك ذلك الذي تعرفه كوزيما من خلال ما اختبرته.)

تم التعليق على الحوار، وأعيد نشره وتلوينه. وكان كتاب كوزيما يُباع، وحولته مقالات أخرى تقريبًا إلى صيحة في عالم الكتب. أما هي فكالعادة وعلى الرغم من خبراتها ونواياها الطيبة، فإنها عادت إلى أحلام اليقظة مرة أخرى. لماذا لا يمكنها أن تتزوج الأشقر العملاق؟ سيأخذها معه إلى خضم الحياة. كتبت له لتشكره، وأجابها وسماها «صديقته الصغيرة العظيمة»، وبدا كأنه يغازلها، حتى أن أندريا تعثر في أحد الخطابات يومًا ما، إلا أنه كان سعيدًا، أخيرًا شخص يليق بأخته الصغيرة. وكانت هي تتجول حول البستان كأنها أنثى صقر حبيسة، مستعدة لأن تنطلق في طيران طويل بمجرد أن تستطيع. كان البستان مليئًا بالزهور: الورود البلدية والليلاس والقَرنفُل، وكانت تنشر عطورها كأنها فوق المذبح في أثناء الاحتفال بالشهر المريمي.[٤]

[٤] هو الشهر الذي خصصته الكنيسة الكاثوليكية لتكريم العذراء مريم؛ شهر مايو.

بالنسبة إليها أيضًا وصل شهر مجدها. كتب لها أيضًا ذلك المتكبر أنطونينو، الذي كان مستمرًّا في الدراسة ليستطيع الحياة في المدينة، وفي خطابه كان يهنئ كوزيما ويثني عليها، ويسألها عن أخبار سانتوس. لم تجبه، ولكنها احتفظت بخطابه بين الذكريات التي ستتبعها في طرق الحياة. الآن تفكر في ذلك الآخر، في الأشقر الضخم، الذي له عينا النمر، وبعد مراسلات طويلة غامضة أرسل إليها في أحد الأيام خطابًا غريبًا، فيه، من بين الأشياء السخيفة التي قالها، أنها تبدو إليه تقريبًا قَزمة.

واستمرت خبرات كوزيما.

تحمل أيام لها روائع جديدة. وصلها خطابان في آنٍ واحد: واحد من مكان بعيد، من قصر أحد أمراء ألمانيا، عليه ختم فضي يمثل صورة تاج الأمير. ربما كان سكرتيره الذي قرأ رواية كوزيما ويكتب إليها، وهو مضطرب، قائلًا في السطر الأخير: «أحبك يا آنسة، أحبك». اعتقدته السكرتير، نظرًا لشيوع اسمه، ولأن كوزيما تسلحت بعدم ثقة يستعصي علاجه. ولكن لماذا لا يمكن أن يكون هو الأمير بنفسه؟ أجابت بأن شكرته، ثم عندما تخيلته هو أيضًا أشقر وطويلًا بعينين برِّيَّتين مثل الصحفي القاسي، وبالإضافة إلى هذا كله أميرًا أو دُوقًا، لم ترسل الخطاب.

بيد أنها أجابت على الخطاب الآخر؛ هذا أيضًا من أمير من نوع مختلف، كان شابًّا في الثانية والعشرين من عمره، ولا بد أنه ثري جدًّا، لأنه كتب لها أنه على وشك أن ينطلق بنقوده الخاصة في حملة إلى أمريكا التي لم تُكتشف بعد، ويستأذنها في أن يمنح اسمها لأول مقاطعة سينجح في عبورها، وأعطاها عنوانًا لأقصى مدينة في الجنوب الأمريكي حيث سيتوقف ليجهز المنزل المتنقل.

أجل، أجابت كوزيما بخطاب وأرسلته بالبريد الخاص، ولم تمنع نفسها من إطلاق العِنان لخيالها، كأنها ملاك مسافر، لتلحق بفارسها المغامر. وبدا لها أنها تعيش في وقت الحروب الصليبية، وأنه ذهب واسمها في قلبه ليحارب ضد الوثنيين وضد الهنود الحمر والتنانين والغابات البِكر والأعشاب السامة.

كانت تلك أجملَ الأيام في حياة كوزيما، أجمل حتى من تلك التي قضتها على الجبل لتتنفس الهواء الذي يتنفسه أنطونينو. كان ذلك هو الحُلم الحي الحالي، المغامرة الملحمية التي تشارك فيها ممتطيةً السحب الحمراء للأفق، فوق البحار التركوازية، في الليالي القمرية.

كان كل شيء يبدو لها عظيمًا ومنيرًا. في المنزل المقابل لمنزلها، مات كاهن العصور الوسطى الأسود، وتزوجت ابنة أخيه بابن عم لها مسن، وجاء ليعيش معها، كان تاجرًا

ثريًّا، ولكنه كان مفعمًا بالحياة، ومفاوضًا قويًّا في تجارة الفلين ولحاء الأشجار. وكان أيضًا صيادًا مشهورًا، ومن حين لآخر يجمع الأصدقاء لحفلات صيد كبيرة. تقطع الجياد الطريق الذي تملؤه الدهشة بطريقة تكاد تكون حربية، وكان الفرسان المسلحون من رءوسهم إلى أقدامهم البعض منهم يمتاز بالرشاقة ويجلسون مستقيمين فوق السروج، والبعض الآخر أكبر سنًّا ملتحون وسِمان وضعفاء نوعًا ما، ولكن بوجوه قاسية وحاسمة كأنهم عصابة معتادة الحصول على غنائم. كانوا ينتظرون اكتمال المجموعة، بينما الكلاب تتقابل وتتناوش بعويل ونباح مزعج، بين حوافر الأحصنة، وبمجرد أن يخرج الصياد الأحمر ذو الفخذين القويين والعينين الخضراوين اللامعتين بفرح شجاع وساخر من البوابة المفتوحة على مصراعيها، ثم يمتطي حصانه شبه البري، ذا الأقدام البيضاء، تبدأ المجموعة كلها في الانطلاق ركضًا، مندفعين في الطريق مثل حشد خرج لغزو أرض العدو. تترك خطوات الجياد خلفها أصداءً تستمر طويلًا، حتى عندما يعود الطريق مهجورًا، وتبدو كأنها ضجيج قطار يبتعد. وبينما كوزيما تنفض الغبار عن غطاء فراشها وترفعه، تشعر بسحر أصداء قفزات الجياد في الهواء. وتفكر في مكتشفها الذي خرج بحثًا عن المتوحشين، وتشعر هي أيضًا في جسدها بجنون غابات الأمازون، وشجاعة بطلة جديرة بمغامرات جَسور، ثم يأتي الدور بعد ذلك لإعادة ترتيب الأسِرَّة وتنظيف الحجرات، وكان يكفي لينتشلها من المستنقع الواقعي هذا هو أن تنتظر على الأقل حضور ساعي البريد.

كان رجلًا فظًّا، وهو أيضًا ذو بشرة حمراء وشعر أحمر، وكان عندما يمر بحذائه الضخم يدق على أبواب السكان ويصرخ بقوة: «بريد، بريد»، تستيقظ كل الأصداء حوله، إلى حد أن الكلاب تبدأ في النباح، ويتخذ الهواء لونًا قلقًا. بالنسبة إلى كوزيما يمثل شخصية تكاد تكون أسطورية، جالب الخير والشر، وعندما تستمع من بعيد لصوته تشعر برعشة كأن القدر يسير نحوها. كان هو، في الواقع، من يحضر لها خطابات المجد والحب، الهوان والأمل، وكان يحضر لها الحوالات المالية، والصحف التي كُتب عليها اسمها كما لو كان مكتوبًا على لوحات أبدية. كانت الآن تنتظر أخبار عالم غامض، بعيد، بل أبعد من الحدود البعيدة للعالم الحقيقي، خطابات من المكتشف، الذي أراد أن يضع اسمها على عالمه الجديد هذا. ولكن عبر ساعي البريد، بحقيبته التي تصنع ضوضاءَ خاصة، بحزامها المصنوع من الجلد، كأنها حقيبة صياد، ودق باب تاجر اللحاء بعنف، وأخرج من حقيبته رزمة من الخطابات والصحف، ولا شيء لها، وكان الصوت الأجش لرجل القدر، مبتعدًا، يبدو كأنه يسخر بقسوة منها.

وهكذا مر على كوزيما الموسم الجميل. لم تعد تهتم ولا حتى بأنطونينو. لم تعد تهتم بشيء سوى كتاباتها، التي استنارت بضوء ذلك الحُلم بأن تكتب أجمل الروايات، تلك الرواية الأجمل من كل ما يمكنها كتابته.

وفي أكتوبر كالمعتاد كان وقت حصاد العنب. لا، لم يكُن كالمعتاد، حيث إن أمها بالاتفاق مع أندريا أقامت بيتًا صغيرًا حجريًّا في الكَرْم، أسفل شجرة الصَّنَوْبر التي تسهر وحيدة على المساحة الممتدة، والبرية كلها تقريبًا، كأنها أرض بور، وأعلنت عن رغبتها في الإقامة هناك لبضعة أسابيع.

الكَرْم فقط مع مربعاته الخضراء والصفراء، مع بعض صفوف شجر التين المنخفضة، استطاع أن يمنح بعض الحيوية للوحدة التعسة العذبة لهذا المكان. ترتفع الجبال البعيدة كأنها أسوار زرقاء تحيط بالأفق. كان مستوطن من أوروبا يحصد — في حياة أبي كوزيما — الكَرْم الذي يزرعه، وبستانًا كبيرًا يستمتع بجدول مياه صغير، تتجمع فيه المياه في حوض متسع كأنها بحيرة صغيرة، محاطة بالبوص والقصب والصَّفصاف البري. كان المكان جميلًا، كالواحة في وسط وحشة المساحات غير المزروعة والمليئة بالحجارة التي تشويها الشمس في ليالي الصيف. وها هو ذا الآن المنزل الحجري الصغير يحولها إلى مكان أكثر جمالًا وترحابًا. كان المنزل عبارة عن حجرتين فقط، إحداهما تجاور الأخرى، صغيرًا، وكان حتى تلك اللحظة مسكنًا لذلك المستوطن الوحيد الذي لم يتزحزح قط من المكان، ويزوده أندريا من حين لآخر بالخبز والمأكولات الأخرى، وفي المقابل يعود محملًا بمنتجات البستان إلى المنزل. وفي أغلب الأوقات يعود بالبطاطس والبازلاء والفول والكرنب والقرع الصيفي والكوسة والخس. وأحيانًا يحضر أيضًا الشمام والبِطيخ. وفي موسم العنب يحضر فقط النبيذ، ذلك النبيذ الخفيف، ولكن ذو المذاق الطيب، الذي ساعد كوزيما لتبتاع الطوابع البريدية لترسل مخطوطات رواياتها.

أُرسلت إذن عربة تحمل الأثاث، كما يحدث عند ذَهابهم إلى الجبل، وعرضت كوزيما أن تصحب هي أمها، بينما كان على الأختين، اللتين لم ترغبا حتى في سماع التحدث عن مكان منعزل كهذا، البقاءُ في المنزل تحت رعاية الخادمة المُخلصة.

كان الخادم الذي يصحب العربة سيمكث في الكَرْم، وأندريا أيضًا سيقضي ليلته هناك تأمينًا أكثر للسيدتين. ولكن كان المكان هادئًا، ولم يسمع أحد قط عن أي أحداث سيئة فيه، لم يكُن السهل المفتوح والعاري يسمح بمرور أيٍّ من المتشردين، إلى حد أن المستوطن لم يكُن يملك سلاحًا ولا حتى كلبًا. على كل حال توجد دورية لعساكر على الحصان مُكلفة بأمن الطرق تمر كل يوم بالشارع العمومي الكبير الذي يعبر ذلك النوع من الأراضي البرية.

وعلى الأقدام سارت كوزيما ومعها أمها بطول الطريق العريض، بعد أن عبرتا المنازل الأخيرة للبلدة. كان اليوم صافيًا ودافئًا، وأنعشت بعض الأمطار الحقول، وبدت الأحراش الجافة والعشب حول الكَرْم أخضر قليلًا. كانت الأزهار ما زالت تتفتح، وبعض زهرات الإلدر القَزمة بدأت — حيث الأرض رطبة — تفتح مظلاتها الفِضية المثقوبة. كانت شجرة الصَّنَوبر فوق المنزل الصغير الذي ما زالت تفوح منه رائحة الجير، تطِن كلها بغناء العصافير، وكانت توجد كل أنواع العصافير، وخاصة عصافير الدُّوري، لأن الشجرة هي الملجأ الوحيد لها، وكانت سيمفونيتها الصاخبة تتصاعد فيها أيضًا أصوات معركة، بيد أنها كانت جميعًا متفقة على أن تحفر ثمار التين الموجودة في الكَرْم، وعلى النقر في العنب، على الرغم من خيالات المآتة التي وضعها هنا وهناك المستوطن الماهر. بالإضافة إلى أنه بدوره كان له هيئة خيال المآتة، طويلًا ورفيعًا، بطيء الحركة، بقدمين ضخمتين حافيتين تملؤها العقد، وبنطاله القديم المتهالك ملفوف حتى ركبتيه الحمراوين، وهكذا أيضًا رفع كُميه على ذراعيه اللتين إذا عصر قبضتيه بدت كأنهما هراوتين. كان مظهره يجعله يبدو كبحار مسن، أكثر من كونه فلاحًا، كان يبدو ك «ثعلب بحر»، بسبب وجهه المحروق كالخزف، وشعره الأشعث بلون الملح الذي يبدو كأن الرياح أطاحت به، وأيضًا بسبب عينيه الصغيرتين الضيقتين اللتين لا يُرى فيهما سوى الحدقتين الخضراوين.

عندما وصلت السيدتان، ساعد الخادم على إنزال الأشياء من العربة، ولم يكُن يجيب عن أسئلة ومزاح الخادم الآخر، كان يبدو كأنه أصم، بل وأعقد أيضًا، لأنه كان يحيي فقط بإيماءة من رأسه، ولم يكُن يفتح فمه الطويل والرفيع الذي تقريبًا لا يُرى.

وفي المقابل كان الخادم يتحدث كثيرًا، كان شابًّا قمحيًّا عيناه واسعتان وأسنانه كبيرة، وكان يعيد وضع حزامه كل حين وآخر، ويضحك بلا سبب. كان وجوده يشيع الفرح، يعجب الآنسة بعض الشيء، كانت تجده على الأقل من جنسها، فلاحًا نقيًّا، ابن الأرض نفسها، بينما المستوطن — بسبب الاسم نفسه الذي كان قد خصصه له سيده القديم — يمثل بالنسبة إليها الغريب، عامل قادم من أراضيَ بعيدة، من أصول مجهولة، شبه غامضة. في الواقع لم يعرف أحد قط من أين أتى، أيضًا لأنه بعد أن انتهى وقت مراقبة الشرطة له، عُهد إليه بخدمة السيد أنطونيو، وحُبس هناك في ذلك الكَرْم المنعزل، ولم يهتم أحد قط أن يسأله، ولا حتى أندريا الذي كان بالنسبة إليه كغراب النبي إيليا، فهو من اعتاد أن يحضر له الخبز. وبالفعل كان الرجل يُدعى إيليا.

وبعد أن وضعا في الحجرتين الفراشين والمائدتين وبعض المقاعد، وشماعة وبعض أدوات المطبخ في أماكنها، ذهب الرجلان ليعملا، وليقطعا الأعشاب الضارة من الكروم،

حتى ينضج العنب. بدأ الخادم الشاب في الغناء، وتاه صوته الرنان، ولكن الرتيب، كأنه في فراغ كنيسة مهجورة.

عندئذٍ بدأت كوزيما — كما كانت قد فعلت من قبل على الجبل — في إعادة ترتيب وتجميل ما أطلقت عليه الفيلا، لتضع ابتسامة على شفتَي والدتها. لم تكُن الأم تبتسم، وكالعادة كانت صامتة ومنغلقة في قلقها السري، ولكن تلألأت عيناها قليلًا، وساعد المجهود الذي كرسته لتحضير بعض الطعام في مِدفأة الغرفة الصغيرة الأولى والمُجهزة بمطبخ وغرفة طعام واستقبال، على صرف انتباهها.

كان يمكنها الاستفادة من غرفة المستوطن للاستخدامات العادية، حيث توجد مِدفأة قديمة وكبيرة تشتعل جيدًا جدًّا، ولكن كانت السيدة تنوي احترام الميزات القديمة للموظف، الذي بعمله بمفرده بنى ذلك الملجأ لنفسه عندما تولى خدمة الكَرْم، وفيه كان يضع أسماله البالية وفراشه.

وأما كوزيما فهي تشتم رائحة الوحشية، ولم تكُن حتى ترغب في النظر إلى الداخل إذا لم يكُن المسن قد استرعى انتباهها الفضوليَّ والمتقدَ لشخصٍ مثلِها يلاحظ الأشياء الخارجة عن المألوف، بسبب غموض ماضيه وما يبدو عليه من مظهر. ربما استطاعت اكتشافه، أن تجعله وديعًا وأن يثق بها، ليحكي لها بعض الأشياء المثيرة للاهتمام، بلون مختلف عن اللون المحلي، شيء ما تضعه على الورق وتحوله إلى مادة فنية.

إذن، بمجرد أن نُظم المسكن، ذهبت إلى الكَرْم، حيث يعمل الرجلان، وأخذت تستمع إلى حوارات الخادم الفلاح، نظرًا إلى أن الآخر يحفظ صمته المطلق والهادئ.

كان الشاب يقول: أتمنى أن يتغير مزاجك السيئ إلى مزاج حسن خلال أسبوع، عندما تأتي الصبايا للحصاد. ستأتي اثنتان من بنات عمي، ولكن عليك أن تكتفي بالنظر إليهما من بعيد وألا تلمسهما، ولا حتى بقصبة، أما الأخريات، اللاتي ستختارهن السيدة على ذوقها، سأتركهن لك بكل حرية، أيها الخنزير المسن.

كان يبدو أن الخنزير المسن لم يكُن يسمعه، فقط عند الإشارة لامرأة، أرملة عجوز — قيل إنها في فترةٍ ما كانت على علاقة بالمنفي — اتسعت عيناه قليلًا، واهتزت حزمة أوراق العنب التي يمسك بها في يده، ولكنه لم يفتح فاه، ولم يلتفت لينظر إلى كوزيما التي وصلت إلى وسط الصف وأخذت تراقبه في صمت. ولم تكُن أيضًا محاولات التودد الأخرى في أثناء اليوم الأول أتت بثمارها، على الرغم من وجبة، غير عادية بالتأكيد بالنسبة إلى الرجلين، أعدتها السيدة وقدمتها لهما، ولكنها هي أيضًا لم تحاول أن تبدأ أي حوار مع الشيخ الصامت.

كان يجيب بنعم ولا عن أسئلتها الخاصة بالبستان وبالكَرْم، وعندما يراها ينهض وينحني في نوع من إيماءات الاحترام، المبالغ فيها، ولكن لا شيء سوى هذا.

قال الخادم، عندما لم يكُن في إمكان الآخر سماعه: إنه أحمق، ولكنه أيضًا خبيث، ويعرف الكثير.

وحكى عن الأرملة، التي في فترة ما تذهب لتزوره في الكَرْم، وأشار إلى ماضيه الطويل. يبدو أنه حاول سرقة أحد أقاربه الأغنياء جدًّا، الذي يعمل في أراضيه، وعلى الرغم من أن قريبه قد سوى الخلاف، فقد تمت إدانة إيليا. ثم انتشرت الإشاعة، أن هذا القريب قد أصبح موظفًا في مصرف، أو أن مصرفًا ما قد تعرض للسرقة، بعد تخدير حارسه، وأن إيليا كان فردًا من أفراد العصابة.

قالت السيدة: إذا كان الأمر كذلك، فلِمَ عيَّنه زوجي في خدمته؟

قال الخادم: أوه، كان السيد أنطونيو طيبًا، بل قديسًا، لم يعد يُولد أمثاله قط.

وفي فترة ما بعد الظهر حضر أندريا على الحصان. ومن بين الأشياء التي أحضرها أحضر أيضًا صحيفة وخطابًا لكوزيما. خطابًا! أخذته، كما كانت تفعل دائمًا، وهي ترتعش: كان يبدو لها في كل مرة أنها تمسك بين يديها بعصفور على وشك الطيران، العصفور الأسطوري للحظ وللسعادة. ولكن كان خطاب دعوة بسيطًا لترسل كتبها إلى صحيفة صغيرة، وعدت بأن تتحدث عنها لقرائها. وتركت الخطاب، كمن يترك طائرًا صغيرًا لا يفيد في شيء.

على كل حال، انتهى اليوم نهاية جيدة، تسبب الغروب في صبغ اللون الأحمر على الكَرْم والبحيرة الصغيرة، تلألأت أشجار الصَّفصاف، وكانت لامتدادات الأرض المنبسطة شاعرية السهول الهادئة والحزينة، كما تراءت لكوزيما في بعض القصص الروسية، ولكن كانت النقطة المركزية للمنظر، والأجمل، هي شجرة الصَّنَوبر الوحيدة بإشعاعات الشمس تتلألأ بداخلها، فتبدو كأن طائر الفينيق[٥] الأسطوري سيعشش فيها.

وذهبت كوزيما لتسير في طريق الأرض البور، حيث يمكنها أن تسير حيثما تريد، لأنه لا توجد خطورة في أن تضل طريقها، ومن الكَرْم يمكنهم مراقبتها بنظرة واحدة. يبدو العشب باللون الوردي، كل بذرة وكل زهرة صغيرة، كل توتة، لها عين ذهبية تجيب عن

[٥] طائر العنقاء الأسطوري: هو طائر خيالي، يمتاز بالجمال والقوة، وعندما يموت يحترق ويتحول رمادًا، ويخرج من الرماد طائر عنقاء جديد.

نظرتها. أما الجبال البعيدة بلون مياه البحر، فقد تبخرت في السماء التي تلونت بالبرتقالي والأخضر والأحمر، تغير رويدًا رويدًا من درجة اللون. طارت دُعسوقة من بين الأحراش لتقف فوق ثوب كوزيما، كأنها تقفز لجزء أعلى من الشجيرات. وأخذت تتحرك ببطء إلى أسفل حتى وصلت إلى ذراعها ثم إلى يدها. كانت مخلوقًا رائعًا وبشعًا تقريبًا في الوقت نفسه. فعلى ظهرها الصغير المُسطح ذي اللون الأحمر القاني مرسوم بالأسود وجه إنساني كامل، بعينين، وأنف وفم، كل شيء مُعْوَجٌّ قليلًا كأنه قناع ياباني، وبدا لكوزيما أن تلك العينين تنظران إليها. وعندما وصلت إلى أقصى الإصبع الأوسط، وفوق الظفر الوردي بانعكاس الغروب، فتحت حشرة الدعسوقة جناحيها الصغيرين الملونين وطارت بعيدًا. تمنت كوزيما تقليدها، ولكن قدميها مُقيدتان في الأرض، وعليها أن تسير إلى أقصى جزء في العالم لتتمكن من أن تلقي بنفسها بهذه الطريقة. وعندما اختفت الشمس، بدت دهشة طفولية في فرض سحرها على كل شيء، تحولت السماء للون المياه الشفاف، وانعكست فيه النجمة التي ظهرت في الأفق كأنها تنعكس في البحر.

لم تشعر كوزيما قط، حتى على حافة الغابة وصخور الكنيسة الجبلية أمام لحظات الغروب التي راقبتها من أعلى، بأنها بداخل سحر كهذا، كأنه يلفها وسط تلك الأرض البور، حيث لا ينظر إليها سوى الله. وبدلًا من أن تشعر بأنها صغيرة، وعلى الرغم من عدم قدرتها على الطيران، بدا لها أنها مرتفعة، مرتفعة إلى حد أنها تكاد تلمس نجمة المساء، غير أنها في تلك اللحظة نسيت كل طموحها، وكل أحلامها الفانية، وانتظارها لمغامرات رائعة. كانت الحياة رائعة هكذا، بين تلك النباتات البرية، بين الأشياء التي خلقها الله لتُفرح قلب الأقرب منه مثل قلب طفل أو مثل قلب الأم، ووجدت هي نفسها أمام الرؤية الأولى في حياتها، فقد شعرت بنفسها فوق سُلم يرتفع إلى أعلى، فوق سُلم يعقوب الذي لا بد أن يكون حياتها. وهكذا، من اللا شيء، فقط لأنها ترى نجمة المساء تلمع فوق الجبال ليست أقل ولا أكثر روعة من حشرة الدُّعسوق، ومن الأعشاب البرية، جميعها تُعطِّر طريقها. قررت ألا تنتظر بعد اليوم أن يأتيها شيء من الخارج، من ذلك العالم الهائج للرجال، ولكن أن ينبع كل شيء منها، من غموض حياتها الداخلية.

وهكذا، انتهى انتظارها لأخبارٍ من المكتشف، وهو أيضًا، من جهته، توقف عن الكتابة.

بيد أن شيئًا حدث لها بدا غير عادي، أمر تجاوز كل الأحداث التي وقعت حتى تلك اللحظة، والتي بالنسبة إليها تبدو، حتى وإن لم تكُن هكذا في الحقيقة، غير عادية. كانت قد مرت ثلاثة أيام على وجودهما في الكَرْم، وكانت الأيام الثلاثة جميعها متشابهة، صافية وهادئة. عادت للكتابة على المائدة الصغيرة في غرفة النوم، أمام النافذة الصغيرة التي خلفها

تطِن الدبابير، ولكنها لم تتمكن من الدخول. لم تتمكن، حتى تلك اللحظة، من التحاور مع إيليا، الذي يبدو كأنه رجل آلي. كان إيليا ينحني، وينهض، ويعمل، دون أن يحرك عضلة واحدة في وجهه، ولم يكُن يوجد حتى لسان في فمه، كما يقول الخادم الذي كان يثرثر بما يكفي لكليهما، ولكن ليقول عبارات، وأمثالًا، وأغنيات، ولغوًا، كلها أشياء لا تثير اهتمام كوزيما.

بيد أن يدَي إيليا بهما حساسية غريبة، وكانت تراقبهما عندما لا يدرك هو ذلك: كانت يداه داكنتين ومليئتين بالعقد، يغطيهما الشعر، ولكنهما صغيرتان بالنسبة إلى حجم رجل طويل القامة ويستخدمهما لعمل شاق، كانتا أحيانًا تُعقَفان مثل المخالب، وأحيانًا تُفتحان وتكادان أن تكونا ناعمتين ولينتين. بهاتين اليدين يمكنه أيضًا أن يُنجز أي عمل يُطلب منه أو أي عمل ضروري. في الواقع يَخِيط ملابسه بنفسه، يغسل، ويصنع أحذيته، نظاراته، أدوات العمل، وكان يُعِد مُربى الطماطم، ويجفف التين. يصنع من طمي معين استطاع استخراجه من المستنقع الأواني والمراجل، ويعمل أيضًا حدادًا ونجارًا. تبدو حجرته الصغيرة كأنها متحف آثار، بمجموعة من الحجارة التي عثر عليها في المستنقع والتي تبدو كالسلاحف، والصدف، والعظام المتحجرة. يلتزم الصمت، ويجيب فقط بنعم ولا عن أسئلة صاحبة الأرض، وهي أيضًا بدورها تُخرج الكلمات بشك مريب، كأنها تُخرج الجواهر من صندوق المجوهرات.

لذلك كانت دهشة كوزيما كبيرة — في اليوم الثالث عند عودتها من تمشيتها المعتادة — عندما سمعت الاثنين الصامتين يتحدثان فيما بينهما. كانا في الحجرة الأولى، وكانت الأم تطهو شيئًا ما على الموقد. كان الباب مفتوحًا، ولم يدركا وجود كوزيما التي كانت تقف في الخارج تستمع. كان الحوار بسيطًا، ولكن كانت النبرة حميمية في صوت الاثنين، حزينة من جهة صاحبة العمل، ومواسية من جهة الخادم، مما أدهش الفتاة. لم تتحدث أمها قط بهذه الطريقة، إلا أنها تشكو من حالها هي بالتحديد. تقول: تأخر أندريا الليلة، أرجو ألا يكون قد حدث شيء ما هناك، أشعر دائمًا بالخوف. وأيضًا تلك المجنونة التي تتجول في الريف كالماعز.

أجابها الرجل بصوت خشن وعذب، ولكنه أيضًا موسيقي، حتى إن السيدة الصغيرة لم تعرفه: لا تقلقي سيادتك، فإيبوليتو ذهب ليجمع الحطب لإشعال النار، وسيراقبها. لم يحدث شيء قط في هذه الأنحاء، فماذا يمكن أن يحدث لها؟ إنها عاقلة، ولا يوجد خطر من أن تكون قد ذهبت للقاء عاشقها.

أصرت الأم: لا أحد يمكنه أن يعرف (فكرت كوزيما في نفسها أن لديهم شكوكهم حول هذا الأمر)، إن الفتيات جميعهن ساذجات، ثم إن هذه، على وجه الخصوص، لديها أفكار معينة في ذهنها، مع كل ذلك الذي تكتبه والكتب السيئة، وتلك الخطابات التي تتلقاها. ألم يأتِ أيضًا لزيارتها رجل ضخم لونه أحمر كالذئاب؟ ألم يأتِ من مكان بعيد، ثم كتب عنها في الصحف؟ الناس تتحدث. لن تستطيع كوزيما أبدًا أن تتزوج زواجًا مسيحيًّا، وسيؤثر ذلك على أختيها أيضًا، لأن الأمر في العائلات يتوقف على زيجة الأخت الكبرى. أضافت الأم بنبرة أكثر حزنًا: كما يوجد أيضًا أخواها اللذان لا يدعمان موقفها كثيرًا. آه، أنت تعلم الموقف جيدًا يا إيليا.

كان هو يعرف، غير أنه كان يثق ثقة عمياء ومرتبطًا بشدة بالسيد الصغير أندريا، حتى إن صوته ارتعش، كأنه يبكي، وهو يتحدث عنه.

– لا يا سيدتي، لا تشتكي كثيرًا من السيد الصغير أندريا، فأنا يمكنني القول إنه طيب، تمامًا كما كان السيد أنطونيو، إنه فقط كريم أكثر مما يجب، وصديق أكثر مما يجب أيضًا لأصدقاء سيئين، ولكن فيما عدا ذلك فهو يهتم بالأعمال، ويحب إخوته محبة خاصة.

– يهتم بالأعمال؟ بالطبع، ولكن ليحصد هو تقريبًا كل الدخل، ويقامر، ويعاشر العاهرات. هل تسمي هذا طيبة؟ هل تسمي هذا محبة عائلية؟ إن أندريا يترك لنا بالكاد ما يكفي لندفع للخدم والضرائب. أنا لا أنام، يومًا ما سيأتي جابي الضرائب ويأخذ كل ما نملكه. أراه في أحلامي، وأخاف منه كما أخاف من الشيطان. آه يا إيليا، وكل هذا لأن ابنيَّ قد ضلا عن طريق الرب.

– إنكِ تبالغين يا سيدتي، هناك أبناء أسوأ من هذا، كل عائلة لديها صليبها.[٦] إن السيد الصغير أندريا، على الرغم من كل شيء، يهتم بالأعمال ويجعلها مثمرة، ويمكنني أن أقول إنه مثل العامل الذي ينتفع بالجزء الأكبر. ولكنه مع الوقت سيزداد حكمة.

– لا يا إيليا، ليس لدي أمل في هذا. ولكن ماذا يمكننا أن نفعل؟ إننا سيدات وحيدات مسكينات، ومع هذا العقاب القاسي الواقع على سانتوس، لا بد لنا أن نستند إلى أندريا. أحيانًا كثيرة أفكر في أن أقسم الميراث، وأعطي لكل ولد نصيبه، لكن سيكون الأمر أسوأ، لأن البائس سانتوس سيصيبه الدمار خلال بضعة أشهر، وأيضًا سيدك الصغير أندريا،

[٦] «لكل عائلة صليبها» تعبير مسيحي، المقصود به: لكل عائلة ألمها الذي عليها حملُه وتحملُه.

سيقامر بنصيبه. ثم إنني أحب ابنيَّ جدًّا، أحبهما أكثر من المعتاد، وكلما ازداد بؤسهما ازداد حبي لهما، وعطفي عليهما. ولكن كوزيما تلك! إنها أكثر من يؤلمني.

– سترين أنها ستكون أكثر من يمنحكِ ويفرحكِ.

ولكن الأم، وبينما كانت تقلب البطاطس التي بدأت تَحْمَرُّ ببطء، وتبعث برائحتها الشهية، استمرت في التنهد.

– ليس هذا ما في الأمر يا إيليا، لست بحاجة إلى من يفرحني، فطريقي قد انتهى، ولا يوجد شيء مهم عندي سوى مصلحة أبنائي. ولكنهم لا يتبعون الطريق الصحيح، ذلك الذي تبعناه أنا وأبوهم، ليبارك الله نفسه. سيكون الذنب ذنبي، فأنا امرأة بلا قوة ولا إرادة، ولكن هم لا بد أن يفهموا هذا. وإذا كنت أتحدث معك هذا المساء يا إيليا، فلأنني أعرف أنك الوحيد الذي سيتعاطف معي.

صاح: آه يا سيدتي! وتردد في صوته تعاطف صادق، يملؤه الدهشة والعرفان. ربما لم يتحدث معه أحد، منذ وقت طويل، بهذه الطريقة. وربما فهم ما أرادت أن تقوله له سيدته، أي أنه هو أيضًا قد أخطأ وعانى، ولكنه عاد مرة أخرى إلى الطريق القويم. لأنه أضاف: إن طرق الرب كثيرة، وهو يساعد دائمًا الأشخاص الطيبين.

– أنت إذن مؤمن؟ أنا، أحيانًا، أشعر بأنني لم أعد أُومِن.

– لا أعرف، فأنا لم أذهب إلى القداس منذ أكثر من عشرين عامًا. لا أعرف، لا أعرف. ولكنني أعرف أننا إذا تمسكنا بالصلاح والصبر سنربح دائمًا. ولذلك تشجعي يا سيدتي.

صمتا لحظةً، وكان يُسمع صوت القلي فوق الطاسة الموضوعة على النار. كانت تخرج من تلك الغرفة الصغيرة المنعزلة رائحة أناس متواضعين، ولكن مستسلمين. كانت شجرة الصَّنَوبر ما زالت تتذبذب بحفيف وطنين، وأنين غامض، ومن الطريق، وصل صوت خطوة حصان: كان أندريا. كانت كوزيما تشعر بأنها ترغب في أن تستند إلى الجدار وتبكي، في تلك اللحظة كانت ستتخلى عن كل أحلامها، رغبةً منها في مواساة أمها، وفكرت في أنه على الأقل يمكنها أن تمنحها الاطمئنان في أنه ما زال يوجد أمل في العثور على زيجة صالحة بينها وبين شاب ماهر من شبان المنطقة، واستعرضت في ذهنها كل أصحاب الأملاك وأصحاب المهن المحترمة، والموظفين الذين تعرفهم، ولكنهم كانوا جميعًا مُشبعين بالأحكام المسبقة بأنها لا يمكن، بشغفها ذلك بالكتب، أن تصبح زوجة صالحة. ومن الناحية الأخرى لم تكُن هي ترغب في أن تحقر نفسها مع أحد. وفي تلك اللحظة جاءتها فكرة أن تنتقل، أن تخرج من ذلك المحيط الضيق للمدينة الصغيرة، وأن تذهب بحثًا عن حظها. لتطيِّب خاطر والدتها.

الفصل الثامن

بيد أنها استمرت في الكتابة، أمام النافذة الصغيرة التي تطِن خلفها الدبابير. ولكنها كانت مضطربة بسبب كلمات أمها، ولأنها لم تكُن تجد موضوعًا جديدًا لقصصها. بدت الحياة لها مسطحة، بلا لون، على الرغم من دراما الشكوك والمخاوف والحزن التي ما زالت تتحرك بداخلها. بدا لها أنها عجوز بالفعل، لديها خبرات كثيرة، وورْد الأمل قد ذبل بالفعل بين أصابعها. كانت تفكر في أن ذلك بتأثير الحزن وفقر المكان وبسبب حياتها نفسها، وتشعر بالرغبة الشديدة في إمكانية العثور مرة أخرى على فرصة تسمح لها بالتطلع على حيوات الآخرين، المليئة بالألوان والمآسي، بالأمجاد والإنسانية المتواضعة والعظيمة في الوقت ذاته، كما في الدائرة السوداء لمعصرة الزيتون. لم تعد تعتمد على إيليا، ولا حتى على حركة الحصاد القريبة التي فيها عرَفت بالفعل ألوانًا شاعرية، وسكبتها بالفعل أيضًا في بعض من قصصها القصيرة.

بيد أن حادثًا صغيرًا وقع، بينما كانت النساء اللاتي أتين بالفعل للعمل، يدفعهن ويقرصهن إيبوليتو، يجمعن العنب ويضعنه في سلال لها مقبضان، ثم تنقله اثنتان منهن، وهما تهدهدانه كمهد ثم تسكبان الثمار في عربة مخصصة لهذا، مبطنة بالقش، وبمجرد أن تُملأ تؤخذ إلى المدينة لتحويلها إلى نبيذ. إحدى هؤلاء السيدات أحضرت معها طفلًا، كان يتسلى ويلعب بين صفوف الكروم لفترة، ثم اختفى، وارتفع فجأة صوت البكاء والصُّراخ. انطلق الجميع بحثًا عنه، بصرخات النداء والفزع، فقط إيليا لم يفتح فمه، ولكنه ذهب مباشرةً إلى حوض المياه، ألقى بنفسه فيه، بملابسه، أخرج منه الطفل الذي كان يرتعش وتتساقط منه المياه كأنه خرقة مبللة.

لحظة سريعة من الخوف، ولكن في المساء أصيب المسن ببعض الحمى، وكان أكثر جمودًا من المعتاد، غير أنه في الفجر عاد مرة أخرى للعمل في الكَرْم، وبمجرد أن انتهى

الحصاد وذهبت النساء، وأعلنت السيدة أيضًا أنها ترغب في العودة إلى المنزل لتشرف على عصر العنب، حتى سقط إيليا فجأة على فراشه، وبدا كجثة هامدة. لم يكُن في الإمكان تركه بهذا الحال بمفرده، بل فكروا في استدعاء الطبيب، وإذا ساءت حالته يأخذونه إلى البلدة. بدا أن ذلك الاهتمام أعاد له حياته وحيويته. قدمت له كوزيما فنجانًا من القهوة، وأجلسته في مرقده، وأعادت تنظيم غرفته الصغيرة. ومن حين لآخر تنظر إليه نظرة رحيمة، دون أن تبدي أي نفور من ذلك الجسد الطويل المغطى بملابس رثة سيئة الرائحة كأنها لمتسول، وقدميه الكبيرتين العاريتين المتسختين، والمليئتين بقطع من الأعشاب المسننة والأشواك، وبدتا كأنه سار عبر أراضٍ لا نهاية لها قبل أن يصل إلى ملجئه المريح هذا. كان مغمض العينين، ولكن فتحهما مرة واحدة، وكانتا محمومتين تلمعان، ونظر إليها كأنه كلب مريض. نظرة فقط، ولكن كوزيما رأت فيها لمعة غامضة في عمق حدقتيه اللتين لم تكونا تنتميان إلى إيليا القاسي والبارد، ولكنه رجل بائس، يخاف أن يموت وحده، متروكًا، كأنه كلب مسن. اقتربت منه وقالت: هل تسمعني؟ يمكننا أن نستدعي الطبيب، أو أن نأخذك معنا إلى المنزل.

بيد أنه أشار بلا، لا. على الرغم من كونه وحيدًا ومريضًا فإنه لم يرغب في الطبيب، ولم يكُن يريد أن ينتقل من كهفه، ولكن أصبحت عيناه صافيتين، مليئتين بالوداعة، وابتسم ابتسامة طفولية.

قال: اذهبا، اذهبا إلى المنزل يا آنستي، سيادتك وسيدتي، لا بد من عصر العنب ووضعه في الأجران.

قالت كوزيما في محاولة للمزاح: إيه! نحن لا نعصره بأقدامنا. ثم إن أندريا أيضًا موجود، وسيهتم بالأمر، لا تقلق على ذلك. بل الطقس تغير، وربما تُمطر. لا نريد أن نتركك في هذه الحالة يا عم إيليا.

كانت هي تناديه بالعم، كما تفعل مع كل الخدم المسنين. ولكنها كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه في وسط مجموعة، وأنه كمن وُلد على الأرض نفسها، وحتى ماضيه كأنه غاص تقريبًا في حياة سابقة. بيد أنه لم يتحدث، ولم يبدِ امتنانه، ولكنه ضايق السيدة الشابة قليلًا بأن استمر في الإجابة بهز رأسه بالرفض عن أسئلتها القلقة. لا، لم يكُن يريد الطبيب، ولم يكُن يريد أن يتحرك، لم يكُن يريد أن يشغل أحد نفسه به. هذا الشيخ العنيد. يبدو أنه يرغب في أن يموت وحيدًا، كما عاش وحيدًا. ولكن مكثت سيدتاه، حتى وصل

أندريا الذي أحضر معه مشروب الكِينا.[1] تناقشوا فيما إذا كان عليهم إعطاؤه للمريض أم لا، بيد أن المناقشة كانت بلا جدوى، لأنه أعلن بأنه لن يتناول أي دواء.

في أثناء الليل هبت عاصفة قوية، وضرب البرد المنزل الصغير بقوة، وأخذت شجرة الصَّنَوبر تصرخ كالوحش. خلف المصاريع المُثبتة بطريقة سيئة، كان يبدو كأن زجاج النوافذ سينفجر ويتبعثر في جزئيات ذهبية وأرجوانية بزئير مخيف. بروق ورعود. لم تتمكن كوزيما من إخفاء خوفها، وكانت الأم ترتعد كفرع شجرة يعصف به الريح. عادت إلى ذهن المرأتين قصص مرعبة عن لصوص وقطَّاع طرق، يندفعون كالشياطين من العواصف، في ليالٍ مشابهة، ويهاجمون المساكن المنعزلة. وكون الخادم وأندريا معهما في المكان، لم يطمئنهما. كانت الرياح تصرخ وتبكي في السهل كأنهم في البحر، وبدا فقط أن شجرة الصنوبر هي من يمكنها مكافحة الإعصار مثل بطل شجاع يقف أمام جيش بأكمله.

وعلى فرشته تذكر إيليا، وحرارته مرتفعة، كيف أن السيد أنطونيو استقبله بتَرحاب عندما تقدم إليه بحثًا عن عمل، بينما لم يرغب أحد من ملاك الأراضي الآخرين المتشككين في المنطقة بقبول عرضه. وعهد إليه صاحب العمل بالكَرْم الجديد، والبستان، والأرض التي حولهما. الآن أصبح الشيخ يحب تلك الأرض بقوة شديدة، كانت قد أصبحت وطنه الجديد وعائلته، وكان مجرد التفكير في أن السادة الشبان كانوا سيرسلونه بعيدًا كحيوان مسن لم يعد يمكنه العمل، يملؤه بالحزن، ليس من أجل المستقبل الفقير، ولكن بسبب حبه لتلك الأرض التي تمثل الآن جزءًا من لحمه ودمه.

ولكن ها هم أولاء السيدة والآنسة، وأندريا نفسه، الثلاثة يظهرون له كرمهم، إلى حد أنهم مكثوا بجواره في تلك الليلة العاصفة بينما كان يمكنهم أن يعودوا بالفعل إلى منزلهم المريح. لا يمكن أن يطردوه، كان يشعر بذلك، شعر به في صوت كوزيما، ويبدو له أن هذا الصوت هو الدواء الوحيد الذي يمكنه أن يشفيه. وكانت ثقته بأنه في يوم ما سيتمكن من أن يُظهر لهم امتنانه، تتسبب في تخفيف آلامه.

في الفجر، هدأ الجو، فجأة، في أعقاب صوت رعد رائع بدا كأنه أمر عسكري: لا بد للمعركة أن تتوقف. فقط شجرة الصنوبر استمرت في أنينها الخافت، المتأمل تقريبًا. كانت كوزيما تسمعه في النوم الخفيف في الصباح، وبدا لها كأن شجرة الصنوبر تهمس: لمَ كل

[1] مادة مُرة تُستخدم في صناعة المشروبات الكحولية، وعلاج الملاريا.

هذا؟ نحارب ونعاني ونتعذب للا شيء، إن قوة الريح باطلة، كل شيء باطل وفارغ، بيد أن علينا أن نصارع لأنها إرادة الله.

ثم صمتت الشجرة أيضًا، ولكن عندما فتحت كوزيما النافذة الصغيرة، رأت منظرًا لا يُنسى: مئات العصافير تتطاير فوق الأفرع التي تضربها الشمس، وبدت كأنها من الذهب والفضة، كانت كل ضربة أجنحة تُسقط نقاطًا تشبه الومضات، وكل طرف من أطراف الأوراق كانت تغطيه لؤلؤة بألوان قوس قزح. كانت تبدو كأنها شجرة مسحورة، مصنوعة من الطيور، والمَرجان، والزمرد، والألماس. وكان بالتأكيد يومًا معجزًا ذلك اليوم. فقد تغير كل شيء في الكَرْم على الرغم من فراغه، حتى من المستنقع، كان كل شيء يتلألأ ويبتسم. مر الرب بحشد من الرعد والبرق، ولكنه عندما وجد أناسًا طيبين، عاد لطبيعته الأبوية من جديد.

رحل أندريا من جديد في الصباح الباكر، مع الوعد بالعودة بعد الظهر وقضاء الليلة في المنزل الصغير ليعتني بالمريض، بينما ستعود الأم وكوزيما مع الخادم إلى المنزل، أخذت كوزيما القهوة لإيليا، الذي جلس على فرشته وأخذ الفنجان بين يديه المرتعشتين.

سألته الآنسة: ماذا بك؟ هل تشعر بالبرد. هذه علامة جيدة، معناها أن الحمى بدأت في الذَّهاب، دعني أجُسَّك.

ولمست أذنه اليمنى الكبيرة، القاتمة والقاسية، كأنها جدار كهف. وعندما لمسته يدها الصغيرة ارتعد هو كأن شيئًا دغدغه، وبدا على عينيه من جديد لمعان الكلب الذي ربَّت عليه أحدهم.

– أنت الآن في نضارة الزهرة يا عم إيليا، ستعيش مائة عام أخرى، عندما ستكون ذكرانا قد اندثرت.

كان يحتسي القهوة، سكب في الفنجان القهوة التي تساقطت على الطبق، وأخذ يُخرج السكر ليأكله كما يفعل الأطفال. ولكنه حتى بعد ذلك مكث بوجهه منحنيًا، وهو ينظر إلى قاع الفنجان كأنه يرى بعض الصور.

سأل بصوت منخفض: أين السيدة؟

وشعرت كوزيما بأنه يرغب في أن يفصح لها عن شيء لكن بعيدًا عن خطر أن يسمعه آخرون.

كانت السيدة مشغولة في الحجرة الملاصقة وقال هو: لا بد أن الفزع قد أصابها هذه الليلة، سيدتي المسكينة وحضرتك أيضًا. كل هذا بسببي.

– لا يا عم إيليا، بل على العكس لقد استمتعت، فلم أرَ هيجانًا كهذا من قبل، وفي وسط الريف أيضًا. آه، أنا عادةً لا أخاف، إذا سمعت صوتًا في المنزل في الليل، أنهض وأنزل إلى المخزن لأكتشف ما إذا كان هناك لصوص، الآن حاول أن ترقد مرة أخرى واهدأ، سأغطيك، لأن الجو بارد بعض الشيء اليوم.

عاد ليرقد، ولكنه كان يبدو أقل هدوءًا وقسوةً من الأيام السابقة، أيضًا لأنه كان يشعر بتحسن. كان يرغب في أن ينهض وأن يعود للعمل، ولكن إيبوليتو، الذي كان يحبه بطريقته، هدده بأنه سيمنعه من الحركة.

وقدمت له الآنسة الحَساء، مع بيضة مضروبة بداخله، بالإضافة إلى كأس من النبيذ، غير أنه لم يمس الكأس، وتركه ومعه دبور يطن حوله مسحورًا.

كانت الشمس ساخنة، ومن النافذة يظهر الأفق، مع الجبال البعيدة الملونة بأزرق سائل كلون المياه، وساد هدوء عميق المكان كله، ومن المستنقع هلت رائحة العشب الرطب كأنها ظهيرة يوم من أيام الربيع. كان الخادم يعمل في البستان، وذهبت السيدة حتى الحوض المائي لتغسل الملابس. فكرت كوزيما أن تلحق بها، وتتوسل إليها أن تتوقف وأن تأخذ الملابس المتسخة إلى البلدة، وفي أثناء مرورها أمام نافذة إيليا، نظرت إلى الداخل، ووجدت الشيخ جالسًا على فرشته، وأشار لها أن تدخل. دخلت، وأدركت أنه احتسى النبيذ، ورأت وجهه وقد تلون قليلًا، وعينيه الناعستين مفتوحتين جيدًا.

عاد من جديد ليسأل: أين السيدة؟

عندما عرف أنها تغسل الملابس، بدا عليه الضيق.

– لذلك إذن أتت لتأخذ قميصي، وها هي ذي تغسله بنفسها. هذا ليس أمرًا جيدًا.

– لا بل إنه أمر جيد أيها العم إيليا، فأمي تتسلى، لا يمكنها أن تمكث لحظة واحدة بلا عمل، أمي المسكينة.

– سيدتي المسكينة، بكل ما لديها من هموم — قال وهو يحني رأسه كما فعل في ذلك الصباح، وبدا كأنه يفكر في شيء.

قالت كوزيما، تقريبًا لتطمئنه: إن أمي تبالغ، ترى دائمًا الجانب الأسود. إن العناية الإلهية لن تتركنا أبدًا.

– أتؤمنين بالعناية الإلهية؟

– أنا، نعم، بالتأكيد!

عندئذٍ حدث شيء غريب، نهض، بطوله وقدميه الضخمتين العاريتين اللتين كانتا تبدوان كأصل جذعَي شجر، وذهب ليغلق النافذة المفتوحة، وقال: تلك الدبابير! ابتعدي،

ابتعدي. استمعي إليَّ، أنا أرغب في أن أطلعك على شيء، ولكن يجب ألا تطلعي عليه أي شخص آخر، هل تعدينني؟ لا أحد، لا أحد قط.

وقفت متشككة، ثم، بدافع من الفضول أكثر من أي شيء آخر، قالت: أعدك.

وكان هذا كل شيء.

اقترب المسن من المِدفأة، وانحنى، أبعد الرماد وبعض الأخشاب المحترقة، وجمعها في زاوية بواسطة مكنسة صغيرة، ثم بالمكنسة نفسها رفع الحجر المركزي، وظهر أسفل الحجر لوح حديدي، شيء يبدو كنافذة صغيرة، مغلقة بقُفل، وأخرج من صدره مفتاحًا صغيرًا معلقًا في صدره بسلسلة سوداء، وفتح ذلك القُفل، فارتفع اللوح بخبطتين صغيرتين، ومد هو يده إلى العمق في الداخل، وبدا كأنه يفك جوالًا ما، أو حُزمة ما، كانت في ذلك العمق، وأخرج قبضة مليئة بالنقود. ونظر إليها، في قبضة يده، كمن ينظر إلى البذور ليتأكد من أنها جيدة، ثم أطلع عليها كوزيما. ذكَّرت يدُه المقببة الطفلةَ بالمغرفة التي يرفع بها الشيطان من آنية الكنوز الملعونة النقود التي جربت النفوس، تراجعت خطوة، تقريبًا مرتعبة، ونظرت إلى الشيخ.

وبالفعل كان ذلك الوجه الداكن، والعينان اللتان تبدوان كحفرتين فيهما مياه خضراء معتمة، وذلك الفم المغلق، والمُكمم، كان به شيء ما شيطاني. ومرت أكثر الأفكار السيئة والمرعبة في ذهن كوزيما، وشعرت بالخوف، ونظرت إلى الباب الصغير. كان الباب مفتوحًا، وكان يمكنها أن تقفز على الفور إذا حاول المسن أن يؤذيها. لا بد وأنه شعر بهذا كله لأن وجهه غيَّر القناع وتحوَّل إلى الحزن. لم تكُن كوزيما قد رأت قط وجهًا يحزن بنبل، متجهمًا وقاسيًا.

قال لها: إنها جيدة. وهو يرفع بأصابع يده الأخرى النقود ويتركها لتسقط مرة أخرى في قبضته.

كانت كوزيما تراها جيدة، تبدو النقود جديدة، بعض منها عليه الوجه الحزين والجشع لنابليون الثالث، وأخرى عليها صورة الديك المغطى بالريش للجمهورية الفرنسية. كانت نقودًا ذهبية، جديدة، حديثة، يمكن للمرء صرفها، بالتأكيد، إذا أراد، بلا أي صعوبة. ولكنها لم تلمسها، وكانت الفكرة وحدها، بأن إيليا يقدمها لها، سواء بدافع من الكرم أو الحب، تخيفها، لأنها تتذكر الإشاعات الغامضة المنتشرة حوله، وكانت متأكدة أن ذلك الكَنز مصدره سرقة ما.

ولكنه أغلق قبضته، وعاد لينحني على فراغ المِدفأة، وأعاد كل شيء إلى مكانه، أعاد فتح النافذة الصغيرة، وذهب ليجلس في فراشه، وأحنى رأسه مهمومًا.

عاد الدبور الذي طرده ليطير وليطن على الخلفية الزرقاء للجبال البعيدة. حدث كل شيء في دقائق قليلة، كأنها عبور للسحب، واقتربت كوزيما من الباب الصغير لترحل، واثقة في قلبها بأنها تعرف كل شيء، ولا ترغب في أن تتورط في ذلك الأمر الخطير، ولكن الشيخ ناداها مرة أخرى: يا آنستي، أريد فقط أن أقول لك هذا، إذا مت، أو إذا لزم الأمر قبلها، فتلك الأشياء لسيادتك.

أرادت هي أن تعترض، وأن تقول له إنها لا تريد حتى قطعة واحدة من تلك النقود، وأن تصرخ فيه بأنه كان من الأفضل أن يعيدها من حيث أخذها، ولكنها رأت أمها تصعد من البستان ممسكة بقميص إيليا المبتل بين يديها، وقفزت إلى الفناء وعلى وجهها تعبير مَن استيقظ لتوه من حلم. فرَدَت الأم القميص على حبل صغير مشدود بين قائمين يستخدمه الشيخ في تجفيف أسماله، ثم عادت إلى المنزل الصغير وبدأت في إعداد الأشياء للرحيل.

ذهبت كوزيما نحو شجرة الصنوبر، وأسندت رأسها إلى القشور الحمراء لجذع الشجرة، كأنها تحاول أن تسمع صوتًا خفيًّا داخل الشجرة الصديقة، صوتًا يواسيها وينقذها، فقد بدا لها أنها متورطة في دراما أثيمة، وأنها شريكة في سرقة، وربما أيضًا في جريمة قتل. ماذا كان عليها أن تفعل؟ أن تبلغ عن المسن؟ ومن جهة أخرى لقد قضى هو أكثر من ثلاثين عامًا في البلدة، وإذا كان قد ارتكب أي جريمة، فقد سقطت مدة العقوبة عليها. لا بد أنها لم تكُن جريمة قتل، إذا كان عقابه عليها كان النفي فقط. ألا يمكن أن يكون قد عثر على هذا الكَنز بلا جريمة؟ في تلك الأيام تحدثت الصحف عن كَنز قيمته تبلغ أكثر من مليون من العملات الذهبية، عُثر عليه في منزل أحد بائعي الأثريات، وعن آخر عثروا عليه على أحد أرفف طبيب غريب ووحيد، جذب الناس من كل أنحاء العالم بتخصصه في شفاء الآلام الروماتيزمية. وأثناء طفولتها، وأيضًا فيما بعد، تشربت كوزيما من الخدم والفلاحين، ومن الرعاة حكايات الكنوز التي عُثر عليها في أطلال القصور القديمة، داخل جذوع الأشجار أو تحت الأرض. وأحدها تقريبًا خرج من مقبرة قديمة، من قبر اكتشفوه لامرأة شابة دفنها زوجها مع كل مجوهراتها وجرة مليئة بالعملات الذهبية.

ربما يمكن معرفة شيء أكثر تحديدًا من إيليا، ولكن مجرد فكرة أن تتحدث معه مرة أخرى تشعرها بالغثيان وتقريبًا بالرعب. بجانب أنها وعدت بألا تتحدث مع أحد عن هذا السر، وقررت بحسم ألا تهتم به بعد الآن. يمكن أن يعتقدوا أنها تتخيل، كما يبدو للجميع. هي نفسها لم تكُن متأكدة إذا كان ما رأته مجرد واحدة من خيالاتها الرومانسية. في كل الأحوال لم تكُن لديها الفرصة أن تجد نفسها وحدها، في ذلك اليوم، مع المسن المشعوذ، الذي سقط مرة أخرى في صمته.

في تلك الليلة، متدثرة جيدًا في فراشها الواقع في حجرة الدور العلوي، حلَمَت كوزيما بجدتها الصغيرة. كانت الجدة ما زالت على قيد الحياة، تمامًا كما رأتها في المرة الأخيرة، بذلك الوجه الصغير لقديسة، غاية في الأناقة، وصغيرة كالقَزم. «صغيرة كالقزم»، حتى في حُلمها تذكرت كوزيما تلك الإهانة، وتذكرت معها بوضوح، مغامرة ذلك اليوم، وكل قراراتها البطولية بألا تستفيد من الكَنز المريب لإيليا. وسنرى إذا كانت بالفعل قَزمة أم عملاقة؟

كانت كوزيما لديها عتاب على جدتها. في المرة الأخيرة التي جاءت لتزورهم في المنزل، لم تعطها القهوة، بل لم تصافحها. الآن، في الحلم، كانت منهمكة في إعداد المشروب المفضل للعجوز العزيزة، ولكن فارت المياه التي تغلي من إناء القهوة وأطفأت النار. قالت الجدة: اتركيها يا طفلتي.

وقالت ويداها الصغيرتان معقودتان على حجرها، وعيناها الكبيرتان بلون البندق، وفمها الصغير المحاط بخطوط من التجاعيد: الآن لم أعد أحتاج إلى أي شيء.

وفجأة استدارت كوزيما لترى الجدة وهي ترتدي ثوب عرس، بزي قرمزي مزركش، وكانت المئزرة مطرزة بألوان زاهية، وعلى أطراف مِشد الخصر تتدلى ورقتا نخيل خضراوان. كانت العصابة الملتفة حول رأسها الصغير بيضاء ومُنشَّاة، وتبدو كأنها من الكتان القديم.

– كم أنتِ جميلة يا جدتي الصغيرة! الآن تَبدِين بالفعل كالجنية.

ولكن لماذا ترتدي العجوز الصغيرة هذه الملابس؟

– لقد عثَرت من جديد على جدكِ أندريا، والآن نحن سعيدان معًا في الفردوس، زوجان إلى الأبد.

لم تكُن كوزيما قد عرَفت الجد أندريا، ولكن تعرف أنه هو أيضًا قد أتى من بعيد يومًا ما، البعض يقول إنه قد أتى من جنوة، والبعض الآخر يقول من إسبانيا، وإنه أخذ يعمل في الأرض، وأيضًا بعد أن تزوج، كان يمكث طَوال الوقت في الريف، ليعمل في الحقول، في وادٍ قاسٍ، مليء بالأجمات والوحوش البرية. وهو أيضًا كان بريًّا، ولكن كان طيبًا جدًّا حتى إن العصافير اعتادت أن تحط على ذراعه، والثعابين تستجيب لصفيره، عندما يرتاح في المساء أمام كوخه ليتطلع إلى النجوم، ترافقه أيضًا القطط البرية. وكانت الناس تقول إنه مجنون قليلًا، ولكن بهذه الصفة عادةً ما يفسر الناس سر بعض الناس المخالفين للمعتاد.

من يدري ماذا كان يرى الجد أندريا الذي يعرف أراضيَ وبحورًا أخرى، في عيون القطط البرية، وفي الريش المتقزح للغراب، وفي الجلد الفِضي للثعابين التي ترتفع مسحورة

بصفيره. ربما يرى الانعكاسات الرائعة نفسها التي تراها هي في أعين الحيوانات، وفي أوراق الأشجار وفي الصخور. الآن، في الحلم، بدأت فجأة أشياء كثيرة تتضح لها، إنه الشعور بالدُّوار نفسه، بالانفتاح والانغلاق نفسه، السريع جدًّا، لعالم سابق في وعيها، ذلك الشعور الذي يوقظه لديها مجرد رؤية جدتها الصغيرة عندما كانت على قيد الحياة. الآن، ما يبدو لها واضحًا، هو ظهور الرُّوح الحالمة للجد، التي تحمل العجوز الصغيرة التي لا تزال تعشقه، صورته في حدقتيها، وكان أيضًا صورة لها، صورة كوزيما الحالمة.

ولكن لم يستطع أحد قط أن يحكي لها بوضوح من أين أتى، وكان يبدو أنه حتى الأم لم تكُن تعرف ذلك بدقة. وفي الحُلم اختلط ماضي جدها بذلك الذي للمسن إيليا، مما أشعرها بقلق مخيف. ولكنها كانت تعرف حق المعرفة، أن جدها قد مات في فقر مدقع، تاركًا عائلة من الأرانب الأليفة في كوخه، وأراحتها هذه الفكرة. بيد أنها على الرغم من ذلك أرادت أن تسأل جدتها عنه.

قالت السيدة العجوز الصغيرة بهدوء: كل هذا هراء، لم يأتِ من جنوة ولا من إسبانيا. ربما أسلافه أتوا من هناك، ولكن ليس هو. لقد أتى من بلدةٍ بحرية، أجل، حيث الناس طيبة، وكان أبوه صيادًا، ولكن أندريا لم يكُن يحب البحر، لأنه كثيرًا جدًّا ما ينقلب إلى وحش ويبتلع الرجال أحياء. وكان أيضًا يشعر بشفقة على الأسماك التي تُباع وتُلتهم هي بدورها، تقريبًا حية. بالتأكيد كان بسيطًا إلى حدٍّ ما، ولكنه كان صالحًا ومسيحيًّا ووديعًا. وصل إلى هنا بحثًا عن عمل، لأنه يحب الأرض التي لا تخون وتمنح الإنسان العشب والفاكهة البريئة. بل كان رحيمًا أيضًا بالزهور والطيور وحيوانات الوادي حتى الثعابين والعقارب، التي أصبحت جميعها أصدقاء له. هذه هي قصته الحقيقية.

وكانت هذه القصة، على الرغم من بساطتها الشديدة، ومن أنها مروية في حُلم، أثرت في كوزيما تأثيرًا عميقًا، تقريبًا مثل ذلك التأثير الذي تركته في نفسها رحلة الدُّعسوقة على ذراعها، وكان تأثيرها أكبر من كل قصص الكنوز والمشاعر والحرب بين الناس.

كانت كثيرًا ما تسأل نفسها ما إذا كانت شخصية متدينة أم تميل إلى الخرافات، تتبع الخيالات أم ذات نفس ضعيفة، ولكن تشعر في أعماقها بأن استقامتها كانت شيئًا أسمى من كل القوى المفروضة عليها من قِبل التعليم أو من قسوة الحياة. يولد المرء مع تلك العطية من الله، مثلما تولد العصافير بقدرتها على الطيران، ويمكن للمرء أن يستمتع بها، دون أن يقرأ الأناجيل ولا حتى كتاب المزامير.

في ذلك الشتاء، وكان شتاءً شديد القسوة، بدا كأن الحظ ابتسم للعائلة التي تبدو للجميع سعيدة، ولكن يجتاحها كثير من الهموم في الواقع. كانت بينا قد أصبحت بالفعل

صبية يافعة، شديدة الذكاء، وكانت أيضًا صادقة ومرحة وسليطة اللسان. كانت تعثر على الجانب الساخر من الجميع، بدايةً من كوزيما، وكانت أحكامها على القريب غير رحيمة. تشعرها الأم بندمها على أنها قطعت خيط لسانها، ولكنها كانت جميلة شقراء شعرها كَستَنائي من النوع الذهبي وعيناها زرقاوان. تمنح الانطباع بأنها باقة من الزهور: ورود وزنابق وعنبر ونرجِس، وكان لها معجبون أكثر من كوزيما، ولكن جميعهم كانوا بعيدًا، والسبب دائمًا حال أخويها التعس.

بيد أنه في ذلك الشتاء، حدث أن جاء معجب أكثر جدية من الآخرين، وكان مدير معهد إعداد المعلمين، شخصية مهمة بالفعل بالنسبة إلى المدينة الصغيرة، كان رجلًا وسيمًا، متورد الوجه، أصلع قليلًا، ولكنه ما زال قويًّا، وله طريقة في التحدث تسحر ثرثاري البلدة. ينظم أيضًا حفلات راقصة، وعروضًا مسرحية، وحفلات موسيقية، ومؤتمرات، ليسلي ويعلم تلاميذه الشباب الذين يعشقونه. وفي أحد تلك التجمعات رأى بينا التي ذهبت بمحض الصدفة مع أم أحد التلاميذ، ووقع في حبها. كانت نوعًا مختلفًا عن كل الفتيات الأخريات في المكان، كانت تبدو تقريبًا من نوعه، وربما هذا النوع من التشابه هو ما جذبه إليها. وفجأة، وبسهولة تكاد تقترب من الوقاحة — شيء غريب على معلم، مرشد مُدرسي المستقبل — أعلن حبه لبينا، وطلبها للزواج.

أصابتها الدهشة، لم يكُن الرجل يعجبها، بل يشعرها تقريبًا بالنفور، حيث كان ضخمًا وشهوانيًّا، وتنبعث من وجهه وصدره ومن بطنه الذي كان بارزًا بالفعل، حرارة حيوانية. ولكن من جانب آخر كانت الفرصة رائعة، الحلم الكبير بأن تترك يومًا ما المدينة الصغيرة لتذهب إلى مدينة أكبر، والزهو بالانتقام من النوايا الخبيثة لأهل بلدتها، والأهم من كل هذا فكرة أن تجلب السرور لوالدتها التي تبدو دائمًا حزينة ومهمومة. من جانب آخر، تعاملت هي أيضًا مع الموقف بخفة، ودون أن تستشير كثيرًا عائلتها، قبلت عرضه.

ذهب الرجل إلى منزلهم للزيارة، يحمل كتبًا وهدايا. تستقبله الفتيات، ويضحكن عندما يقص عليهن قصصه المرحة التي لم تكُن مناسبة كثيرًا لهن.

تمنى أندريا لو كان هناك طلب رسمي للزواج يتم ببعض القواعد، ربما بواسطة أحد الأقارب المهمين، حسب عادة البلدة، ولكنه لم يجرؤ على الاعتراض على تجهيزات الزواج، بل وكان يتمنى في أعماقه أن يتم كل شيء بخير، غير أنه كان فقط يهدد الأختين بالضرب إذا تركتا الخطيبين الغريبي الأطوار ولو لحظة بمفردهما. كوزيما أيضًا لم تكُن سعيدة، ولكن هي أيضًا تشعر ببعض السرور من التعليقات المريرة لعائلات البلدة، بسبب الحقد والثرثرة واللعنات التي أثارها حظ بينا في المقاطعة كلها.

بدءُوا بصب لعناتهم على السيد المدير: بأنه شخص فاجر، وأنه يحتفظ في منزله بفتاة سوداء جميلة كان يجعلها تسير عارية حافية على بلاط المنزل ويضربها مثل الكلاب، وفي واقع الأمر هو يسخر من تلك النساء المسكينات اللاتي ليس لديهن من يحميهن سوى أخيهن الهمجي.

بيد أن الرجل كان واقعًا في الحب بالفعل: يقدم الهدايا، ويثني على حماة المستقبل، صرف الخادمة السوداء ليسكت اللغو، وحدد هو بنفسه تاريخ الزواج؛ في أكتوبر، عند العودة من الإجازة.

خُصص كل دخل العام من مراعي الجبل، إلى زيت المعصرة، واللوز ولحاء الأشجار، كلها، وبتضحية إرادية من أندريا، إلى جهاز العروس. كانوا يحيكون ويحيكون، وكانت الأخوات الثلاث يحكن أحلامًا بيضاء مثل ورود المفارش والملاءات. ولكن في أحد الأيام، كتب لها الخطيب الضخم، الذي كان يقضي إجازته في بلدته البعيدة عند جبال الألب، بأنه نُقل من عمله، ولن يتمكن من العودة في أكتوبر، ولكنه سيأتي بعد ذلك من أجل العرس. ثم أصبحت خطاباته شحيحة، وفي النهاية، في أحد الأيام تقدم للسيدة فرانشيسكا محامٍ كان على علاقة به بسبب بعض الشئون الخاصة بالمدرسة، وطلب أن يعرف كم ستخصص لمهر بينا. وكانت صدمة، ولكن كانت هذه عادات أهل بلدة الخطيب. وفي نهاية الأمر، فإن المهر الصغير الذي يحق للصغيرة من ميراثها ستستمتع به هي مع عائلتها في المستقبل. وكانت الإجابة، سيُعهد إلى بينا بسدس أو ربما بخمس الميراث الذي يبلغ حَوالَي ٢٥ ألف ليرة، في حالات الحصاد السيئ. وبعد ثمانية أيام من الانتظار المر، عاد الرسول المساوم وقال: يشكو الخطيب ويقول إن الحياة صعبة، وإنه لا يرغب في أن يضع زوجة المستقبل في حرج أو أن يحرمها من شيء، وإن المهر لا بد وأن يكون على الأقل خمسين ألف ليرة، ليس هذا فقط، ولكن أن تكون عشرون ألفًا منها من الأملاك المضمونة.

اجتاح الغضب أندريا. ذلك الوحش، إذن، وذلك الخنزير السمين والمتوحش، لم يدخل منزل أخواته بسبب الحب، ولكن من أجل المصلحة. والآن يحاول أن يبتزهم، لأنه يعرف أنه إذا لم تتم هذه الزيجة فسوف تتسبب في تشويه سمعة الفتيات البائسات. تحدث عن أنه سيذهب للعثور عليه ليقتله بهراوة كخنزير حقيقي، ولكن كانت الأم تبكي، وأعلنت كوزيما بأنها ستتنازل عن نصيبها في الإرث إلى أختها، وحاولوا بيع بعض الأشياء، ولكن المبالغ المعروضة كانت ضئيلة، ومن جهة أخرى لم يكُن في الإمكان تعرية العائلة كلها التي كانت فقيرة بالفعل ومُعوزة.

عندئذٍ، وعندما رأت كوزيما خزي أمها وأختها التي يكاد اليأس يقتلها، بدأ الشيطان يداعبها. فكرت في كَنز إيليا، وعرضه لها، وفي إمكانية أن توافق عليه، ولكن مجرد التفكير في هذا أصابها بالرعب. لا، لا يمكن أبدًا، أرادت أن تجلد نفسها لتنزع فكرة الكَنز تلك تمامًا من ذاكرتها، بيد أن الإغواء، في نهاية الأمر، لم يتركها، كانت تقول لنفسها: هل أنتِ حمقاء؟ لستِ سوى شخص لن يحصل على أي شيء جيد في الحياة، ولن تستطيعي أن توفري شيئًا لمن تحبينهم. ومن قال إن نقودَ المسن تلك ملكُه؟ اذهبي، حاولي أن تعرفي المزيد، فتشي، ابحثي، ابحثي ...

شعرت بأنها متحمسة لهذا مثل الكلب المتحمس في رحلات الصيد، بيد أنها لم تتحرك، كانت ثابتة أكثر من أي وقت على وعدها الذي قطعته للمسن، بألا تكشف عن سره لأي مخلوق. وإذا كان هو مجرمًا، فهو أمر ارتكبه أمام الرب، وشيء بينه وبين ربه. ولِتهرُبَ أكثر من التجرِبة، امتنعت أن تذهب إلى الحصاد في ذلك العام، إلى حد أن الأم، التي يعذبها التفكير في ذلك الأمر المؤلم، لم تمكث في الكَرْم سوى ثلاثة أيام. لم يعد الخطيب يكتب، ولم يظهر المحامي مرة أخرى. أغلقوا على جهاز العروس الذي أُعد في الصندوق، كأنه ميت. كان أندريا بائسًا وحزينًا، يشغله أمر عارِ أسرته عن متعه الشخصية، وعندما يعود إلى المنزل تختبئ الأخوات من الخوف، كأنهن المذنبات في كل ما حدث.

وفي الأيام الأولى من شهر نوفمبر رأت كوزيما من جديد جدتها الصغيرة، كانت ما زالت ترتدي زي العروس، وكانت تمسك بسُبحة من اللؤلؤ بين يديها الصغيرتين. كوزيما ما زالت تشعر بالندم على أنها لم تقدم لها القهوة في المرة الأخيرة التي أتت فيها، وبدأت تُعِدها، ولكن فار المشروب مرة أخرى من إناء القهوة وأطفأ النار. وقالت الجدة الصغيرة: دعكِ من هذا الأمر، فنحن هناك فوق، لا نحتاج إلى شيء. لقد أتيت فقط لأحيِّيَكِ ولكي أنقل لكِ أيضًا تحيات فرانشيسكو.

كان فرانشيسكو هو اسم خطيب بينا، وبدا كأن الجدة الصغيرة تمزح بقسوة، ولكن بعد ذلك عرَفت، أنه في تلك الليلة نفسها، وقبل حُلم كوزيما بقليل، مات فرانشيسكو، بعد ثلاثة أيام من إصابته بنزلة شُعبية. وهكذا، وحسب الرحمة الإلهية، أصبح هو أيضًا فردًا من أفراد العائلة. وهدأت الأمور في هذا العالم لبعض الوقت.

وفي تلك الأيام، بالتحديد، بدا كأن الرب يكافئ كوزيما بشيء آخر يواسيها أكثر. طلبت مَجلةٌ أجنبية كبيرة ترجمةَ روايتها «الأغصان المتساقطة» وعرضت عليها مبلغًا لا بأس به. بالإضافة إلى أنها طلبت السيرة الذاتية للكاتبة، لأن مقالة نقدية ستسبق الترجمة. وافقت

كوزيما. حتى إنها كانت تشعر بالخوف من حظها هذا: ألن يتسبب ذلك في جلب المزيد من المصائب لها؟ وها هو ذا المبلغ يصل، وفي مكتب البريد يدفعونه إليها بعملات ذهبية، مشابهة لتلك الموجودة في كَنز إيليا. نظرت إليها برعب، ولم تقوَ على لمسها، وطلبت تغييرها إلى نقود ورقية، ووضعت جزءًا منها في دفتر بريد، ولكن عندما رأت أمها النقود نظرت إليها بامتعاض، كانت تبدو لها كأنها ثمار خطيئة مميتة.

قالت كوزيما: حسنًا، سأنفقها إذن، ولن أضع منها أي شيء جانبًا، وسيرحل ربحي كأنه أوراق في مهب الريح.

وها هي ذي الفرصة تقدم نفسها إليها: إحدى معجباتها، وكانت تدير مَجلة أدبية صغيرة في مدينة «...» الساحلية، دعتها لتزورها في منزلها، وذهبت هي، على الرغم من رعب أمها، وتذمر أندريا الذي أراد على الأقل اصطحابها في جزء من الرحلة، عن طريق القطار، وعندما تركها بدا له كأنها تعبر المحيط الأطلسي.

وشعرت هي في أعماقها بالضياع: إلى أين هي ذاهبة؟ وماذا تريد؟ ومثل «ذات الرداء الأحمر» في وسط الغابة بدا لها كأنها على وشك أن تقابل الذئب، ولكن تمنت بأن يسير كل شيء على ما يرام، لأن ضميرها مستريح، وكان ظل الشر مشابهًا لتلك الظلال الكبيرة للسحب الشتوية التي تصعد من خلف الجبال الداكنة في تلك الوديان المنعزلة بطول السواحل حيث يجري القطار الصغير بجوارها كلعبة. كانت السماء ضخمة، بزرقتها اللامعة وسحبها المندفعة بفعل الرياح الشرقية الساخنة، تبدو أكثر علوًّا وأكثر زرقة.

بالنسبة إلى كوزيما، التي تطل من النافذة المعتادة للقطار، بدت السماء غريبة، عدوانية، بينما الأرض أسفلها ما زالت تحمل ملامح الأمومة، التي عرَفتها دائمًا بها: الانحناءات نفسها التي يغطيها العشب المرتعش، والأحراش والصخور، أشجار البلوط التي قسَّاها حزن القرون، ومقاومتها للجو والعناصر. القرى الصغيرة السوداء، قابعة كالغربان في أعشاشها الصخرية، تظهر وتختفي في الضوء المتغير للمسافة. بعض الرعاة بقطعانهم يجوبون الحافة الخضراء لجُرف وتتنقل الخرفان كأنها ظل السحب مع عبور القطار، وكان لدى كوزيما انطباع بأن المشهد كله يتحرك لأنه تفاجأ برؤيتها تتحرك ذاهبة إلى حياة جديدة.

كلما هبطوا نحو السهول الساحلية كان الطقس يتغير تمامًا، كانوا في بداية الخريف، هناك كانت السماء خالية من السحب، صافية، تميل إلى الخضار، وفجأة رأتها كوزيما تنعكس على مرآة المياه التي ذكَّرتها بحوض الكَرْم. كانت كالمسبح. رأت طيورًا لم ترها

من قبل، ضخمة وأجنحتها ملونة بألوان الطيف، كانت ترتفع من المستنقع كأنها تخرج من المياه وترسم في السماء شيئًا كقوس قزح، ربما كان سرابًا، ولكنه بدا لها فألًا حسنًا.

وكان أول شخص رأته عندما توقف القطار في محطة — بدت لها بما فيها من حديقة النخيل ونهايتها التي تتحلى بقوس منير من السماء الزمردية كأنها واحة متمدينة — شابًّا يرتدي اللون البني الذهبي، بشاربين رائعين باللون نفسه وعينين واسعتين شرقيتين. أخذ ينظر إليها كأنه يعرفها، وبدا لها أيضًا أنها رأته من قبل في مكان ما: أين؟ لم تكُن تعرف، وبعد أعوام طويلة جربت مرة أخرى ذلك الشعور الغامض بالدُّوار الذي كان يثيره فيها في الطفولة، وأقل منها في المراهقة، حضورُ جدتها.

ولكن مجموعة صغيرة غزت رصيف المحطة، واختفى الشاب. قفزت سيدة ترتدي ملابسها بشكل غريب، كلها أجزاء متطايرة وأسدال، وترتدي قبعة موضوعة باعوجاج على شعرها الأصفر الخفيف، نحو الصبيَّة، وحملتها تقريبًا من فوق عتبة القطار، ضمتها إلى صدرها النحيل، وغطت وجهها بالقبلات، كانت عيناها الزرقاوان كالخزف تلمعان بالدموع التي تتساقط على أنفها المعقوف، وتختلط باللعاب المتساقط من فمها. وبنحيب متشنج أخذت تنادي الصبيَّة باسمها ولقبها، وتحييها، حتى شعرت كوزيما بالخجل. كان الناس ينظرون إليها، البعض منهم يعرف هذا الاسم واللقب، وكانوا يحيونها تحية احترام لها ويُلقون نظرة تعجب لمضيفتها الصاخبة. كانت ترغب في الصعود من جديد للقطار وأن تعود إلى المنزل، ولكن كان مقدَّرًا لها أن تبدأ في التعرف على أضرار الشهرة، لأنه بمجرد أن وصلت إلى منزل مضيفتها — مبنًى جميل كله شرفات، أمامه حديقة وكنيسة — وعلى السلالم الرخامية ذات الدرابزين المزين بكروم بنية، رأت، ببعض الرعب، صفًّا من الصبايا والفتيات، يرتدين تقريبًا جميعُهن اللون الأبيض، ممسكاتٍ بباقات من الزهور في أيديهن. كانت تبدو كسلالم الفردوس، تحرسها ملائكة بلا أجنحة، وبينما أخذ الساعي حقيبتها المتواضعة القديمة من العربة، ذلك الأثر الخاص بالعائلة، تولت السيدة ماريا بنفسها، مضيفتها المرتعشة، أمر حملها إلى أعلى كأنها كَنز ثمين، أخذت الصبايا يُنشدن أغنية، بدا أن من علمتهن إياها معلمة قديرة. وكانت المعلمة هي السيدة ماريا، وكانت الملائكة هن جاراتها في المبنى.

عندئذٍ كان لا بد أن تبدو متأثرة بالتأكيد، وكانت تستطيع، من أعلى درَج للسُّلم أن تلقي عليهن بكلمات الشكر، ولكن غطت كوزيما وجهها بالمِنديل، ولم تستطع أن تبكي ولا حتى أن تتحدث. ومن تلك الجَوقة التي تكونت على شَرَفها لم يبقَ في ذهنها سوى الصوت

الرتيب والحزين تقريبًا، الذي كان يختلط مع ضوضاء بعيدة لم تكُن تفهمها جيدًا، والذي كان شبيهًا بصوت شجرة الصنَوبر في الكَرْم، كان صوت البحر.

كان البحر في نهاية الشارع العريض، الذي يجري بجانب صف من المنازل البيضاء، الجديدة واللامعة. شعرت كوزيما بشدة بأنها موجودة في مدينة شرقية، أشجار نخيل، وصبار، وأشجار استوائية أخرى تتحرك بصعوبة أسفل تلك السماء الحارة، على الخلفية الزرقاء الداكنة للشاطئ. وعلى النوافذ كانت تُزهر الجارونيا، وكان عطر الأعشاب ينزل من الهضاب المغطاة بأشجار الصنَوبر التي تسد الأفق أمام الطريق. كان الناس جميعهم في الخارج، كما يحدث في الأمسيات الصيفية، وكانت الأغاني وأصوات المندولين مستمرة، وفي الخارج، كانت جَوقة شرف كوزيما، على الأقل بدا لها ذلك، ولكن بدلًا من أن تشعر بالفخر، كانت تقريبًا تشعر بالخوف.

وبعد أن حشتها بالحلوى والمشروبات، تركتها مضيفتها، التي استمرت في تقبيلها، وتقريبًا في لحسها مثل الكلب الذي عثَر على صاحبه، في الشقة التي تسكن فيها بمفردها مع زوجها المريض. كان موظفًا في شركة خاصة. كانت قد خصصت لكوزيما أجمل الغرف، بالشرفة، تلك التي كانت تطل على البحر، وتركت لها أيضًا الصالون، المليء بالورود الورقية والأواني المشققة، وبعض المفارش وبعض الأدوات ذات الذوق السيئ.

– هنا يمكنكِ أن تستقبلي أصدقاءكِ ومعجبيكِ.

ولكن لم يكُن لكوزيما أصدقاء، ومجردُ فكرةِ أن لها صديقًا واحدًا ترعبها. أما عن المعجبين، فلم تكُن ترغب فيهم، كان يبدو لها، من خلال خبرتها الطويلة، أنهم لا يتسببون إلا في الأذى. فجأة سمعت طرقًا على باب الشقة، ودون أن تفكر كثيرًا فتحته. كان العامل لدى محل الورود، وكان يحضر لها باقة كبيرة من الورود الحمراء، الملفوفة في ورق قماشي. من أجلها، من أجلها بالتحديد، ولكن لا يعرف من أرسله. جلست هي تنظر إلى باقة الزهور بالدهشة المرتعدة التي كانت تنظر بها إلى حفنة العملات الذهبية في يد إيليا. العطر القوي للورود ولونها جعلها تبدو كأنها على قيد الحياة، دافئة وتجري فيها الدماء، أكثر من جوقة الصبايا وطنين الموسيقى في الشارع، شعرت من ذلك التنفس شبه الإنساني بالحياة تأتي لمقابلتها. ولكنها عندما قررت أن تأخذ الباقة من بين يدَي العامل الذي ينظر إليها نظرات خبيثة، شعرت بوخزة شوكة حادة، وفكرت في أن الحياة أيضًا، أسفل وهْم الأشياء الأكثر جمالًا وثراءً، تُخفي أظافرها الصُّلبة.

وضعت الورود في إحدى زَهريات الصالون، وعادت إلى الشرفة، أجل، كان الجو كأنه الصيف، صعِد القمر الكبير الوردي من خلف أشجار صنَوبر المرتفعات، وكانت السماء

والبحر بين نخلتين تلمعان كأنهما النخل الذهبي المصنوع من ورق الأَلومِنيوم الذي يستخدمونه في بلدة كوزيما في عيد الفصح، يختلطان في لون أزرق زمردي.

يلعب الأطفال في الشارع الذي ما زال أبيض، لعبة السفير الآتي ليطلب العروس، وتشعر بأنها انتقلت إلى دائرتهم، عروس صغيرة يطلب السفير يدها لشخصية مهمة غامضة.

هنداوي